فضائل مصر ومزايا أهلها

الدكتور محمد موسى الشريف

مقالات كتبها الدكتور محمد موسى الشريف في

موقع التاريخ

altareekh.com

عن فضائل مصر ومزايا أهلها

تنسيق موقع صيد الفوائد

www.saaid.net

بسم الله الرحمن الرحيم

إنه ليصعب على المرء أن يكتب في فضائل مصر ومزايا أهلها، ذاك أن هذا الموضوع بحر خضم لا يُدرك قعره، وأمر مهول لا يمكن ولا يستطاع، فكم لمصر وأهلها من فضائل ومزايا تند عن الحصر، وتخرج عن قدرة العادين، وكم لها من تاريخ في الإسلام عظيم، منذ أن وطئتها أقدام الأنبياء الطاهرين، والمرسلين المكرمين، لكن يصح لمثلي أن يغترف من البحر، ليأتي بشيء نَزْر، دلالةً للمستدلين، وعوناً للباحثين، وقياماً بحق أهل مصر فهم أنساب لي وأصهار، فوالدتي –حفظها الله تعالى– مصرية، ووالدي قد أصهر إليهم مراراً، وأم جدي عقيل مصرية، وأم زوجي مصرية، فالعلائق بمصر تحيط بي من كل جانب، وصِلاتي بأهلها قديمة، لذا فإني أكتب عنها بعواطفي ومشاعري وأبثها حبي وأشواقي.

. مصر في القرآن :

قد ذكر الله تعالى مصر في أربعة مواضع في كتابه الكريم، وفي ذلك تشريف لها وتكريم، فقال جَلّ من قائل: (وقال الذي اشتراه من مصر لامرأته)

وقال سبحانه: (ادخُلوا مِصرَ إن شاءَ اللَّهُ ءامِنينَ)

وقال أصدق القائلين: (وأوحينا إلى موسى وأخيه أن تبوءا لقومكما بمصر بيوتا واجعلوا بيوتكم قبلة)

وقال عز وجلّ قاصاً قول فرعون: (أليس لي ملك مصر وهذه الأنهار تجري من تحتي)

– وذكرها سبحانه إشارة في مواضع عديدة تبلغ قرابة الثلاثين، وذلك نحو قوله تعالى: (وقال نسوة في المدينة) ، وقوله تعالى: (ودخل المدينة على حين غفله من أهلها)

وكقوله تعالى قاصاً قول آل فرعون: (وقال الملا من قوم فرعون اءتذر موسى وقومه ليفسدوا فى الا رض ويذرك وءالهتك)

– وكقوله تعالى قاصاً قول ناصح موسى عليه الصلاة والسلام: (وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك) إلى آخر تلك المواضع الكثيرة.

– وقد وصف سبحانه وتعالى أرض مصر أحسن وصف فقال جل من قائل: (كم تركوا من جنات وعيون {25} وزروع ومقام كريم {26} ونعمة كانوا فيها فكهين {25} كذلك وأورثنها قوماً ءاخرين {28}

– وقد وُصفت مصر في القرآن بأنها خزائن الأرض فقال سبحانه قاصاً قولَ يوسف عليه الصلاة والسلام: (قال اجعلني على خزائن الأرض) وما ذلك إلا لكثرة خيراتها، وعظم غلاتها، وجودة أرضها.

– ولم يذكر نهر من الأنهار في القرآن سوى النيل، وذلك في قوله تعالى: (وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه في اليم) والمفسرون على أن المقصود باليم هنا هو نيل مصر.

– وقال الكندي: لا يُعلم بلد في أقطار الأرض أثنى الله تعالى عليه في القرآن بمثل هذا الثناء، ولا وصفه بمثل هذا الوصف، ولا شهد له بالكرم غير مصر.

. مصر في سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم:

– قد وصى رسولنا الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأهل مصر خيراً فقال بأبي هو وأمي: "إذا افتتحتم مصر فاستوصوا بالقبط خيراً فإن لهم ذمة ورحماً"، والرحم لأن أم إسماعيل وهاجر من القبط، وفي لفظ: "فإن لهم ذمة وصهراً"، والصهر لأن مارية أم إبراهيم –رضي الله عنه–منهم، والذمة: هي الحُرمة والأمان.

– ولذلك قال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما: قبط مصر أخوال قريش مرتين.

– وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "أحسنوا إلى أهلها فإن لهم ذمة ورحماً".

– وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : "اللهَ اللهَ في قبط مصر فإنكم ستظهرون عليهم ويكونون لكم عدة وأعواناً في سبيل الله".وكل هذه أحاديث صحيحة ان شاء الله تعالى.

. فضائل أرض مصر:

حدود مصر من النوبة جنوباً إلى رفح العريش، ومن برقة –ليبيا– شرقاً إلى أيلة غرباً –أي أيلات التي هي اليوم على خليج العقبة بيد إخوان القردة.

وإن لأرض مصر فضائل كثيرة، فمنها أن فيها الوادي المقدس طوى والجبل الذي كلم الله تعالى عليه موسى، عليه الصلاة والسلام.

– وفيها الجبل الذي تجلى الله –تعالى– له فانهد وصار دكاً.

– وهي المبوأ الصدق الذي أخبر الله تعالى عنه بقوله: (ولقد بوأنا بني إسرائيل مبوأ صدق) ، قال القرطبي في تفسير المبوأ الصدق: أي منزل صدق محمود مختار، يعني مصر، وقال الضحاك: هي مصر والشام.

– وفي أرضها يجري نهر النيل المبارك الذي ينبع أصله من الجنة كما أخبر النبي صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح الذي أخرجه الإمام مسلم وأحمد: "النيل وسيحان وجيجان والفرات من أنهار الجنة".

– وفي مصر الربوة التي أوى إليها عيسى بن مريم وأمه على أحد أربعة أقوال للسلف، فقد قال ابن وهب وابن زيد وابن السائب أن مكان الربوة المذكورة في قوله تعالى: (وءاوينهما إلى ربوة ذات قرار و معين) أنها في مصر.

وعلى أرضها ضرب موسى البحر بعصاه فظهرت المعجزة العظيمة والحادثة الفريدة في تاريخ البشرية.

– وقال تعالى قاصاً كلام آل فرعون: (وابعث في المدائن حشرين) وهذا يدل على كثرة المدن في مصر آنذاك.

– وقال عمرو بن العاص رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ولاية مصر جامعة تعدل الخلافة"، فجعل كل بلاد الإسلام في كفة ومصر في كفة أخرى.

وقال سعيد بن هلال: إن مصر مصورة في كتب الأوائل وقد مدت إليها سائر المدن يدها تستطعمها، وذلك لأن خيراتها كانت تفيض على تلك البلاد، وقد ذكر سعيد أن مصر أم البلاد وغوث العباد.

وقال الجاحظ: إن أهلها يستغنون عن كل بلد حتى لو ضُرب بينها وبين بلاد الدنيا سور لغنيَ أهلها بما فيها عن سائر بلاد الدنيا.

ولقد كانت أرض مصر على خلاف ما هي عليه اليوم، فهذا المأمون لما جاء مصر وجلس تحت قبة الهواء وأقبل عليه عظماء المصريين فقال قبح الله فرعون إذ قال: (أليس لي ملك مصر) فلو رأى العراق.

فقال له سعيد بن عُفير القاضي المصري الكبير: لا تقل هذا يا أمير المؤمنين إن ما ترى هو بقية ما دُمر فقد قال تعالى: (ودمرنا ما كان يصنع فرعون وقومه) فلم يجد المأمون كلاماً يقوله بعد هذه الإجابة الذكية.

وفي رواية أنه قال له: فما ظنك بشيء دمره الله هذه بقيته، فقال: ما قصرت يا سعيد.

قال سعيد: ثم قلت: يا أمير المؤمنين: لقد بلغنا أنه لم تكن أرض أعظم من مصر، وجميع الأرض يحتاجون إليها، وكانت الأنهار بقناطر وجسور بتقدير، حتى إن الماء يجري تحت منازلهم وأفنيتهم يحبسونه متى شاؤوا، ويرسلونه متى شاؤوا، وكانت البساتين بحافتي النيل من أوله إلى آخره ما بين أسوان إلى رشيد لا تنقطع، ولقد كانت المرأة تخرج حاسرة ولا تحتاج إلى خمار لكثرة الشجر، ولقد كانت المرأة تضع المِكتل على رأسها فيمتلئ مما يسقط به من الشجر، إلى أن قال: وكانت جباية مصر تسعين ألف ألف دينار –أي تسعين مليون دينار، وهو مبلغ هائل جداً بمقاييس تلك الأيام–.

ويدلنا على أن أرض مصر لم تكن كما هي اليوم أن المؤرخين أكثروا من ذكر مصر وفضائلها وجودة أرضها، ولولا أن أولئك المؤرخين ذكروا أموراً لا تعرف –اليوم – أكثرها، وبعضها غير صحيح، أو كان صحيحاً بمعارف زمانهم ثم ثبت غيره، لولا ذلك لأوردت كلامهم فإنه عجيب، ويرجع من أراد معرفة ذلك إلى كتاب "حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة" للحافظ جلال الدين السيوطي فيما نقله عن الكندي، وابن فضل الله، والتيفاشي وابن زولاق وجماعة كثيرين غير هؤلاء.

وقد مُسحت أرض مصر أيام ولاية هشام بن عبدالملك فوجدوا أن ما يصله الماء منها مائة مليون فدان، ومسح أحمد بن المدبر أرض مصر زمن ولايته فوجد أن ما يصلح منها للزرع 24 مليون فدان سوى ما تلف أو غلبت عليه الصحراء، وما أحسن ما أورده ابن ظهيرة –رحمه الله تعالى– في أرض مصر فقد قال:

"غيطان مصر –أي بساتينها– وهي عظيمة كثيرة، ومناظرها عالية، ومياهها جارية غزيرة، فيها كثير من الأشجار النضرة، والأزهار العطرة والرياحين، والفواكه الكثيرة من غالب الثمار، وهي كثيرة جداً، لا قيمة لها بمصر، ولقد أخبرني المولى سيدي عبدالعزيز بن يعقوب بن المتوكل على الله أمير المؤمنين العباسي أنه أكل بقرى البحيرة فاكهة أطيب من فاكهة الشام، منها عنب زنة كل عنقود خمسة أرطال، أحلى من العسل المذاب، وأنعم من السَّلَى 1- غشاء رقيق يحيط بالجنين. 1- غشاء رقيق يحيط بالجنين. [Î] لا يحتمل مس الأيدي، وأكل بطيخاً، يشبه الصيفي في شكله: غير أن داخله مرمل، أحلى من الشهد، وأكل بمريوط تيناً أسود صغيراً أحلى من العسل، وأشياء غير ذلك".

وقد قال ابن ظهيرة يمدح القاهرة وعظم مساحتها، وذلك في القرن التاسع الهجري فقال :

"عظم مدينة القاهرة الآن وكثرة خلقها وأبنيتها من أسواق وشوارع وربوع وغيرها، وبيوت وجوامع ومدارس، فمن المعلوم المقطوع به بالحس، فلا حاجة إلى المفاضلة فيه، لأنه من خواص هذا البلد السعيد، ولقد تواترت الأخبار وأجمع المسافرون والسائحون في بلاد الله تعالى الشاسعة، وأرضه الواسعة أنه ليس في الدنيا تحت السماء من مشرقها إلى مغربها مدينة أعمر بكثرة الخلق منها، لا يكاد ينقطع الزحام بشوارعها العظيمة، وهي ضيقة لكثرة الناس والدواب حتى إلى الليل، وبعد العشاء بكثير، ولا تشق فيهم إلا بالكتف، ومن لم يكن متيقظاً يداس بسرعة، وهي وإن كان ثم مدن بالمشرق والمغرب أكثر منها مساحة ولكنها قليلة الناس، عديمة الإيناس، وأنا أقول: إن هذه ليست بمدينة واحدة، بل مدن مجتمعة، إذ في كل شارع وخط ومحلة منها بيوت ودروب وأسواق وجوامع ومدارس تصلح أن تفرد بمدينة واحدة، بل في كل ربع من ربوعها ما يعمر بهم قرية".

[Î] – غشاء رقيق يحيط بالجنين.

– وفي مصر رباط الإسكندرية الذي لا يدري إلا الله تعالى كم سكنه ورابط فيه من العلماء والعباد والزهاد والأبطال والشجعان والأولياء والصالحين العاملين، وهذا الإمام الكبير أبو الزناد الأعرج عبدالرحمن بن هرمز القرشي صاحب أبي هريرة والملازم له، المتوفى سنة 117 يقول: "خير سواحلكم رباطاً الإسكندرية".

وقال سفيان بن عيينة الهلالي المحدث المشهور (ت 198) لإمام المصريين أحمد بن صالح: يا مصري: أين تسكن ؟! قال: الفسطاط.

قال: أتأتي الإسكندرية؟ قال: نعم. قال: تلك كنانة الله يجعل فيها خير سهامه.

– وفي مصر جامع عمرو بن العاص رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وهو أول جامع بني في قارة افريقيا، وقد ضبط قبلته جماعة كثيرة من الصحابة رضي الله عنهم قُدروا بثمانين رجلاً.

وفي مصر جامع الأزهر الذي له الفضل المشهور، ولشيوخه مواقف كثيرة جداً في نصرة الإسلام وأهله، وهو اليوم بعد الثورة يُرجى له أن يعود منارة شامخة كما كان، إن شاء الله تعالى، وقد قال ابن ظهيرة –رحمه الله تعالى¬– في الجامع الأزهر:

"فليس في الدنيا الآن، فيما أعلم، له نظير ولا ينقطع ذكر الله تعالى عنه طرفة عين في ليل ولا نهار، وفيه أروقة لأصناف من الخلق منقطعين لعبادة الله –تعالى– والاشتغال بالعلوم وتلاوة القرآن، لا يفترون ساعة".

– وأما عجائب أرض مصر فكثيرة جداً فمنها الأهرام، ومنها صنم الأهرام وتسميه العامة أباالهول، وفيها عجائب الأقصر ومَنْف، وعين شمس،والنيل، والإسكندرية ومنارتها وعمودها، وفي كل ذلك تفصيل طويل، وقالٌ وقيل، وآثار مروية، وأخبار متناقلة، وأسرار غامضة، وبعض تلك العجائب باق وأكثرها قد فني.

وقد فتح المأمون هرماً من الأهرام زمن قدومه مصر قبل موته بسنة أو نحوها فوجدوا فيه من عجائب الأموال والموميات والأصنام أمراً مهولاً، وفتحت مقدمة هرم منها زمن أحمد بن طولون أيضاً، ووجدوا فيها عجائب ويئسوا من فتح كل الهرم، ولا يُعرف على التحقيق من بنى تلك الأهرام وكيف بناها.

وقد عرف اليوم من أسرار الأهرام شيء كثير.

وقد استقلت مصر بالخلافة الإسلامية 265 سنة تقريباً، منذ انقطاع الخلافة من بغداد عقب الغزو التتاري الهمجي سنة 656 إلى سقوط مصر بيد السلطان سليم العثماني سنة 924هـ.

مصر والأنبياء

أما أهل مصر فيكفيهم شرفاً وفخراً سكنى الأنبياء بين ظهرانيهم ومرورهم ببلادهم، فهذا شيخ الموحدين وأفضل المرسلين بعد نبينا العظيم -عليهما أفضل الصلوات وأتم التسليم- قد مر بمصر في رحلته مع زوجه سارة، وجرى لهما مع جبار مصر ما جرى مما ورد في صحيح الإمام البخاري لمن أراد الرجوع إلى القصة.

ودخلها يعقوب -عليه الصلاة والسلام-.

ودخلها الأسباط مراراً وتوفوا ودُفنوا بها.

وسكن مصرَ يوسف -عليه الصلاة والسلام- ونال بها من المكانة والجاه ما لم ينله أحد من الأنبياء والمرسلين ومن عداهما في مصر، وشرفت أرض مصر بدفن جسده الطاهر فيها، ثم نُقل بعد ذلك إلى فلسطين زمن موسى - عليه الصلاة والسلام - في قصة جليلة.

وموسى وهارون -عليهما الصلاة والسلام- ولدا في مصر وعاشا فيها طويلاً، وجرى عليهما في أرض مصر ما جرى من الأحداث العظام مما قصه علينا الله -تعالى- في كتابه الجليل.

ويوشع بن نون فتى موسى وكان نبياً -عليه الصلاة والسلام- ولد بمصر، وعاش فيها، وخرج منها مع موسى، عليهما الصلاة والسلام.

وقيل إن أيوب وشعيباً وأرميا دخلوا مصر أيضاً -والله أعلم-.

ويكفي المصريين شرفاً وفخراً أن خير الأنبياء والمرسلين مطلقاً محمداً وإبراهيم – عليهما أفضل الصلوات والتسليم– كان تحتهما مارية وهاجر المصريتان، فأنجبت الأولى إبراهيم عليه السلام، وأنجبت الأخرى إسماعيل –عليه الصلاة والسلام– وهو جد نبينا صلى الله عليه وسلم فما أحسن هذا وما أعظمه.

وقيل إن يوسف –عليه الصلاة والسلام– صاهر إليهم أيضاً.

– وإن يفتخر المصريون بشيء بعد هذا فحق لهم أن يفخروا بماء زمزم الذي فُجر إكراماً لهاجر وابنها، فللمصريين فضل في ظهور هذا الماء، والشرف موصول لهم ما بقي هذا الماء على وجه الأرض.

وحَقٌّ على المصريين أن يفخروا بأن هاجر قد خَلّد الله سعيها بين الصفا والمروة جزاء طاعتها إبراهيم – عليه الصلاة والسلام– وأوجب على كل رسول ونبي وسائر مَن حج البيت الحرام أن يسعى سعيها ويجهد جهدها، فما أعظم هذا وما أحسنه.

ولو لم يكن للمصريين فخر وشرف إلا أن هاجر هي جدة النبي الأعظم المفخّم المكرّم محمد صلى الله عليه وسلم لكان هذا كافيَهم، ولذلك قال فيها أبو هريرة رضي الله عنه: "تلك أمكم يا بني ماء السماء" أي العرب.

ومن المصريات العظيمات أم موسى – عليه الصلاة والسلام– وقيل بنبوتها.

وآسية امرأة فرعون التي ضربها الله –سبحانه وتعالى– مثلاً في كتابه للمؤمنين وأثنى عليها، وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أنها إحدى كوامل النسوة –رضي الله عنها– وقيل بنبوتها.

ومرت سارة زوج الخليل صلى الله عليه وسلم بمصر، ولها قصة فيها وردت فى صحيح الامام البخاري.

ومن المصريات الجليلات ماشطة فرعون وابنها الذي تكلم في المهد، ولها وله قصة جليلة رائعة.

ومن المصريين مؤمن آل فرعون، وقد شُرف بتخليد صنيعه ودفاعه عن موسى – عليه الصلاة والسلام – والدعوة الإسلامية في كتاب الله تعالى: (وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ أَتَقْتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ وَقَدْ جَاءكُم بِالْبَيِّنَاتِ مِن رَّبِّكُمْ وَإِن يَكُ كَاذِبًا فَعَلَيْهِ كَذِبُهُ وَإِن يَكُ صَادِقًا يُصِبْكُم بَعْضُ الَّذِي يَعِدُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ كَذَّابٌ(

ومن المصريين كذلك الرجل المؤمن الذي حذر موسى –عليه الصلاة والسلام– وورد في قوله تعالى:

(وجاء رجل من أقصى المدينة يسعى قال ياموسى إن الملأ يأتمرون بك ليقتلوك فاخرج إني لك من الناصحين)

ومنهم السحرة الذين آمنوا بموسى – عليه الصلاة والسلام – وكانوا جملة وافرة وعدداً ضخماً.

– وأهل مصر من ألين الناس تعاملاً ومن أحسنهم أخلاقاً وأدباً، ولذلك قال تاج الدين الفزاري رحمه الله تعالى: "إن من أقام في مصر سنة وجد في أخلاقه رقة وحسناً".

وقال عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما:

"أهل مصر أكرم الأعاجم كلها، وأسمحهم يداً، وأفضلهم عنصراً، وأقربهم رحماً بالعرب عامة وبقريش خاصة".

وقال ابن ظهيرة، رحمه الله تعالى، يمدح أهل مصر، ويعدد مزاياهم:

"حسن فهمهم في العلوم الشرعية وغيرها من سائر العلوم، وسرعة تصورهم، واقتدارهم على الفصاحة بطباعهم وعذوبة ألفاظهم ولطافة شمائلهم وحسن وسائلهم أمر محسوس، غير منكور، تشهد لهم بذلك

الناس حتى إن كل من عرفهم وخالطهم اكتسب من فصاحتهم، واختلس من لطافتهم، وإن كان أعجمياً قحفاً أو فلاحاً جلفاً".

ثم مدح أصواتهم فقال:

"حسن أصواتهم، وندائهم، وطيب نغماتهم وشجاها، وطول أنفاسهم وعلاها، فمؤذنوهم إليهم الغاية في الطيب، ووعاظهم ومغنوهم إليهم المنتهى في الإجادة والتطريب".

ثم مدح نساءهم فقال:

"نساؤها اللاتي خلقهن الله تعالى للتمتع بهن، وطلب النسل منهن، أرق نساء الدنيا طبعاً وأحلاهن صورة ومنطقاً، وأحسنهن شمائل، وأجملهن ذاتاً، وخصوصاً المولدات منهن، وهي من يكون أبوها تركياً وأمها مصرية، أو بالعكس، وما زلت أسمع قديماً عن الإمام الشافعي رضي الله تعالى عنه، ولم أره منقولاً، أنه قال: من لم يتزوج بمصرية لم يكمل إحصانه".

ثم مدح حسن معاملتهم للغرباء فقال:

"حلاوة لسانهم، وكثرة ملقهم ومودتهم للناس ومحبتهم للغرباء، ولين كلامهم لهم، والإحسان إليهم ومساعدتهم لهم على قضاء حوائجهم، ورد ظلاماتهم، ونصرهم على من ظلمهم بحسب استطاعتهم، وقوة عصبيتهم لمن أرادوا وإن كانوا في باطل.

عدم اعتراضهم على الناس: فلا ينكرون عليهم، يحسدونهم، ولا يدافعونهم، بل يسلمون لكل أحد حاله: العالم مشغول بعلمه، والعابد بعبادته".

– هذا وقد سكن مصر بعد فتحها جماعة من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فشرفت أرض مصر بهم وازدانت، وخالط ترابها أجسادهم الطاهرة، وبعضهم سكنها ومات بغيرها، وبعضهم مَرّ بها رسولاً أو مجاهداً، وكان منهم جملة جليلة وعدد كبير عظيم منهم عمرو بن العاص، وعقبة بن عامر الجهني وعبدالله بن أبي السرح، ومسلمة بن مخلد، وعبدالله بن عمرو، ومعاوية بن حُديج، وكلهم ولي إمرة مصر رضى الله عنه.

ومن الصحابة في مصر صلة بن الحارث الغفاري وعبدالله بن حذافة السهمي.

وعبدالله بن الحارث بن جزء الزبيدي، وشهد فتحَ مصر، واختط بها سكناً، وعاش بها دهراً وهو آخر صحابي مات بمصر.

وأبو بصرة الغفاري شهد فتح مصر.

وخارجة بن حذافة العدوي، وهو أحد الفرسان الأبطال يُعَدّ بألف فارس، وأمد به عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – عمرو بن العاص رضى الله عنه، وهو الذي قتلته الخوارج ظناً منهم أنه عمرو بن العاص ، رضي الله عنه .

ورويفع بن ثابت الأنصاري.

ودخلها جابر بن عبدالله بن حرام رضى الله عنه طلباً لسماع حديث عظيم جليل.

ودِحية بن خليفة الكلبي، وهو الذي كان ينزل جبريل بصورته، وكان له جمال مفرط. والزبير بن العوام رضى الله عنه وقد شهد فتح مصر، وهو معدود من الأبطال الكبار.

وسعد بن أبي وقاص رضى الله عنه وشهد فتح مصر ودخلها غير مرة.

وسلمة بن الأكوع وهو فارس شجاع رام مشهور.

وسهل بن سعد الساعدي وقدم مصر بعد الفتح.

وعبادة بن الصامت وهو أحد النقباء وممن شهد بدراً، وكان من سادات الصحابة وشهد فتح مصر.

وعبدالله بن أُنيس الجهني، وعبدالله بن حوالة الأزدي وشهد فتح مصر، وعبدالله بن الزبير، وعبدالله بن أبي السرح وشهد فتح مصر، وعبدالله بن عباس وقد دخل مصر لفتوح افريقية، وعبدالله ابن عمر شهد فتح مصر، وعبدالله بن عمرو بن العاص وشهد فتح مصر، وعمار بن ياسر دخل مصر رسولاً، وفضالة بن عبيد الأنصاري وشهد فتح مصر، وقيس بن سعد بن عبادة وشهد فتح مصر وسكن بها، ومحمد بن مسلمة الأنصاري، والمسيب بن حَزْن والد سعيد وقد دخل مصر لغزو افريقية، ومعاوية بن حُديج السَّكوني وشهد فتح مصر، وأبو أمامة الباهلي وسكن مصر مدة وتوفي بالشام، وأبو أيوب الأنصاري وقد شهد فتح مصر، وأبو الدرداء وقد شهد فتح مصر، وأبو ذر الغفاري وشهد فتح مصر وسكنها مدة، وأبو هريرة.

وقد تخيرت أشهر الصحابة وإلا فقد بلغوا زهاء ثلاثمائة وخمسين رضى الله عنهم.

وولد بها خامس الخلفاء الراشدين والأئمة المهديين عمر بن عبدالعزيز، وكان أبوه عبدالعزيز بن مروان والياً عليها، وكان عمر يحب مصر ويثني عليها، وقد قال له سليمان بن عبدالملك الخليفة الأموي قبله في حادثة جرت لفرس مصرية: لا تترك تعصبك لمصر يا أبا حفص.

– أما التابعون فقد سكنها جملة عظيمة منهم –رحمهم الله تعالى– فكان منهم أبو الزناد عبدالرحمن بن هرمز الأعرج (ت 117) صاحب أبي هريرة رضى الله عنه والملازم له.

وحبيب بن الشهيد التجيبي المصري فقيه طرابلس الغرب (ت 109).

وبكير بن عبدالله الأشج المدني الفقيه نزيل مصر، وهو من ثقات المصريين وقرائهم، (ت 122).

ويزيد بن أبي حبيب الأزدي، أبو رجاء المصري، فقيه مصر وشيخها ومفتيها (ت 128)، وكان ثقة كثير الحديث روى عنه أصحاب الكتب الستة، وكان مفتي أهل مصر، وهو أول من أظهر العلم بمصر والمسائل في الحلال والحرام، وكان أهل مصر قبله إنما يتحدثون في الملاحم والفتن والترغيب، وقال الليث: هو سيدنا وعالمنا.

أما تابعو التابعين فمن بعدهم إلى يوم الناس هذا فجملة هائلة وعدد أكبر من أن يحصيه بشر، لكني سأتخير منهم جماعة أوردهم حسب طبقاتهم وعلومهم وفنونهم في الحلقات القادمات، إن شاء الله تعالى.

علماء مصر :

أما العلماء المصريون أو الذين سكنوا مصر مدة طويلة أو قصيرة، فعدد لا يمكن حصره، وهذا –على التحقيق– هو الذي بَوّأ مصر مكانة عالية في التاريخ الإسلاميّ، وهو الذي رفع قدر البلاد، وحمى الله –تعالى– به العباد، فالعلماء صِمام أمان المجتمع، وهم الذين تزدان بهم البلاد، وتصان بجهودهم حقوق العباد، ومن هؤلاء العلماء في القرن الأول جملة من الصحابة رضى الله عنهم، وعدد من التابعين، وقد ذكرت بعضهم من قبل في الحلقة الماضية.

ولابد أن أقول إني عندما أنسب شخصاً ما لمصر فهو إما أن يكون مصرياً بالولادة أو بالأصل، أو أنه وافد طارئ على مصر أقام فيها أربع سنين فأكثر، وذلك لأن الإمام الكبير عبدالله بن المبارك قال: من أقام ببلد أربع سنين نُسب إليها، وهذا أعده أقدم قانون للجنسية مطلقاً، وقد أخذت بعض دول أوربا بهذه المدة التي عينها ابن المبارك –رحمه الله تعالى– وأعطت الجنسية لمن أقام بها أربع سنوات فأكثر، وهذا يدل على النظرة المبكرة الثاقبة لذلك الإمام الفذ.

ومن علماء القرن الثاني:

الليث بن سعد (ت 175) وهو إمام المصريين الذي قال فيه الإمام الشافعي: الليث أفقه من مالك إلا أنه ضيعه أصحابه، وهو أحد كُمّل الرجال وأصحاب المروءة الكبار، وأحد أثرياء مصر، رحمه الله تعالى .

وعبدالله بن وهب الراسبي المالكي الذي لما قرئ عليه كتابه "أهوال القيامة" ظل يخور كأنه ثور منحور، وغشي عليه ثم مات بعد أيام متأثراً، رحمه الله تعالى، وذلك سنة 197.

ومنهم صاحب الإمام مالك عبدالرحمن بن القاسم (ت 191) الذي قَلّ مثيله في الدنيا، وكان من أصحاب الهمم العالية، فكان ينام على باب مالك في المدينة النبوية المنورة ينتظره إذا خرج إلى المسجد النبوي الشريف لصلاة الفجر.

ومنهم ورش المصري عثمان بن سعيد (ت 197) الذي يقرأ أكثر أهل المغرب العربي الكبير وإفريقيا بروايته إلى يومنا هذا.

ومنهم عبدالله بن لهيعة المحدث الإمام (ت 164).

وعثمان بن الحكم الجذاميّ (ت 163)، وهو أول من أدخل علم مالك إلى مصر، ولم يأت مصر أنبلُ منه.

ومن علماء القرن الثالث:

الإمام الشافعي وهو ممن عظمت مصر وسعدت بسكناه فيها وموته في أرضها سنة 204، وفي مصر ختم الشافعي القرآن ستين مرة في رمضان وذلك أثناء رباطه في الاسكندرية، وكان ذلك بشهادة المزني، والشافعي إمام الدنيا وعالم العلماء، وإليه المنتهى في العلوم الشرعية والتسليم فيها، وقد قال -رحمه الله تعالى- قبل مجيئه إلى مصر:

أصبحت نفسي تتوق إلى مصر ودونها أرض المهامه والقَفْر

ولا أدري أللسعادة والغنى أساق لها أم أني أساق إلى قبري

فقال أحد العلماء: والله لقد سيق إلى ذلك كله.

ومنهم أصحاب الشافعي الذين لم يرزق إمام في الدنيا بمثلهم، وعلى رأسهم المزني (ت 264) زينة أصحابه، وكان إذا فاتته صلاة الجماعة صلى الفرض خمساً وعشرين مرة رجاء التعويض!! وكان إماماً ورعاً زاهداً مجاب الدعوة.

ومنهم البويطي يوسف بن يحيى (ت231) صاحب حلقة الشافعي من بعده، وهو الذي صبر في محنة خلق القرآن يوم حُمل في الحديد إلى السجن ببغداد ومات بها، وكان من كرامات الشافعي أنه كان يقول له: تموت في الحديد، وهو أحد أئمة الإسلام وأركانه وزهاده.

ومنهم يونس بن عبدالأعلى الصدفي إمام المصريين (ت 264) وتوفي بعد الشافعي بستين سنة، وكان ورعاً زاهداً صالحاً عابداً، كبير الشأن، ذا فضائل كثيرة، ولما حضرته الوفاة بكى فسأله أصحابه عن ذلك فقال: قدماي لم تغبرا في سبيل الله، يريد أنه فاته شرف الجهاد، رحمه الله تعالى.

ومنهم عبدالله بن عبدالحكم بن أَعْين، كان من أعظم أصحاب مالك (ت 215) ودفن بجوار الشافعي، وابنه محمد وكان مفتي مصر في زمانه (ت 268).

والربيع بن سليمان الجيزي المرادي، وكان عالماً ومؤذناً بجامع مصر، وقد جاء مرة ليؤذن فأخطأ فقال: حدثنا الشافعي، ثم ضحك وضحك الناس، وأخذ في الأذان، رحمه الله تعالى.

ومن العلماء أشهب، وأصبغ المالكيان، وقد دعا أشهب على الشافعي في سجوده بالموت فقال: اللهم أمت الشافعي حتى لا يضيع مذهب مالك، فمات الشافعي لكن أشهب لم يمهله الله تعالى فمات بعد الشافعي بشهر، وقد قال الشافعي لما بلغه دعاء أشهب عليه بالموت:

تمنى رجال أن أموت وإن أمت ... فتلك سبيل لست فيها بأوحد

ومنهم سعيد بن كثير بن عُفير (ت 226) قاضي مصر، وقد قال فيه إمام الجرح والتعديل يحيى ابن معين لما زار مصر واجتمع به: رأيت بمصر ثلاث عجائب: الأهرام والنيل وسعيد بن عفير.

ومنهم عبدالملك بن هشام (ت 218) صاحب "السيرة النبوية" المشهورة، وقد اجتمع بالشافعي لما ورد مصر وتذاكرا وتناشدا من أشعار العرب شيئاً كثيراً، وكان إماماً في النحو واللغة والأدب.

– وأما علماء القرن الرابع فعلى رأسهم :

الإمام الطحاوي أحمد بن محمد بن سلامة الأزدي الحنفي ابن أخت الإمام المزني (ت 321) وهو صاحب العقيدة المشهورة التي أصبحت مرجعاً.

ومنهم ابن النحاس المصري النحوي الذي غرق في النيل في حادثة عجيبة، فقد كان يجلس عند مقياس النيل في الروضة في القاهرة، وكان يقطع الأبيات الشعرية ليعرف أوزانها مما هو معلوم من علم العَروض، فمرّ به أحد عوام المصريين فظنه يسحر النيل فرفسه من خلفه فوقع في النيل فمات غريقاً رحمه الله تعالى سنة 338.

وأما علماء القرن الخامس:

فمنهم القاضي عبدالوهاب المالكي البغدادي المشهور الذي كان يعيش في بغداد في شظف وشدة، فلما جاء مصر أثرى، فلم يلبث بعد ذلك قليلاً حتى مات، وفي الاحتضار قال كلمة لطيفة: لا إله إلا الله: عندما عشنا متنا، وتوفي سنة 422 عن ستين سنة ،رحمه الله تعالى.

ومنهم الحافظ عبدالغني بن سعيد الأزدي (ت 409).

وأما علماء القرن السادس فهم ثلة عظيمة، وعلى رأسهم:

الإمام الكبير الطُرطوشي المالكي نزيل الإسكندرية (ت 525) الذي كان له مواقف مشهودة مع العُبيدية الباطنية ودولتهم تُعرف زوراً وبهتاناً بالفاطمية، وما لهم من فاطمة –رضي الله عنها– نصيب، وكان يقول: "إذا سألني الله عن المقام في الديار المصرية أيام العُبيدية فأقول: يا رب وجدت قوماً ضلالاً فعلمتهم"، وذلك يبين فضل الدعوة إلى الله وعظمها.

وكان يقول: إذا عرض لك أمران: أمر دنيا وأمر آخرة فابدأ بأمر الآخرة يحصل لك الأمران.

ومنهم الحافظ العظيم أحمد بن محمد السِّلَفي الأصبهاني (ت 576) الذي سكن الاسكندرية 65 سنة ولم يخرج من بيته للفرجة إلا مرة واحدة!! ولم ير بحرها إلا من طاقة بيته!! وقد قرأ عليه الحديث صلاح الدين الأيوبي لما كان والياً لنور الدين زنكي على مصر، رحمهم الله جميعاً.

وهو الوحيد في الدنيا –فيما أعلم– الذي حَدّث أكثر من ثمانين سنة، وتوفي عن قرابة مائة سنة، رحمه الله تعالى.

وممن مر بمصر وسكنها مدة ومات بها الحافظ عبدالغني المقدسي الذي كان مشهوراً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ولم يَفُقْهُ أحد في هذا الباب إلا سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، رحمهما الله تعالى، ولهما في الإنكار عجائب وغرائب، وهما حجة الله تعالى على المتأخرين في هذا الباب العظيم.

أما القرن السابع فأعظم علماء مصر فيه هو:

العز بن عبدالسلام (ت 660) الذي كان أعظم العلماء مطلقاً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حتى اشتهر بسلطان العلماء وبائع الأمراء، وله في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر حكايات تدل على عناية الله –تعالى– به وتوفيقه إياه، وقد كان مجلس فقهه يوصف بأنه أبهى مجلس فقه فى الدنيا، وقد كان له أثر عظيم في انتصار المصريين على التتار في عين جالوت سأبينه إن شاء الله تعالى في حلقة قادمة.

ومنهم المؤرخ المشهور القاضي ابن خَلِّكان صاحب "وفيات الأعيان" وتوفي سنة 681، رحمه الله تعالى.

ومن علماء ذلك القرن الإمام الشاطبي المقرئ صاحب الشاطبية (ت 590) وهي أعظم منظومات القراءات انتشاراً وقبولاً، وقد طاف ببيت الله الحرام حاملاً الشاطبية سائلاً الله –تعالى– أن يقبلها ألف أسبوع!! والأسبوع سبعة أشواط، فحقق الله –تعالى– رجاءه.

وقد عُظم في مصر تعظيماً عجيباً حتى قال أبو شامة المقدسي فيه:

رأيت جماعة فضلاء فازوا برؤية شيخِ مصرَ الشاطبيِّ

وكلهم يُعظمه ويثني كتعظيم الصحابة للنبي صلى الله عليه وسلم

والشاطبي إمام جليل جداً، وقد ترك بلده لأنه كان خطيباً وأُلزم أن يذكر الأمراء بصفات في الخطبة لم يرها سائغة ففر بدينه إلى مصر، وعاش في فقر وشدة حتى أغاثه الله –تعالى– على يد القاضي الفاضل الذي أكرمه.

ومنهم الحافظ المحدث عبدالعظيم المنذري (ت 656) صاحب الكتاب المشهور "الترغيب والترهيب" وقد كان يوصف مجلس حديثه بأنه أبهى مجلس حديث على وجه الأرض، ومن سمو أدبه أنه كان المفتي بمصر قبل مجيء العز بن عبدالسلام، فلما دخل العز إلى مصر تنازل له عن الفُتيا، وبادله شيخ الإسلام العز بن عبدالسلام أدباً بأدب فقد كان يحضر مجلسه في الحديث كأحد الطلاب!!

ومنهم الإمام الكبير أحمد بن إدريس القرافي المالكي أحد العقول الضخمة في الإسلام، وهو صاحب كتاب "الفروق"، وهو أحد من وفق للجمع بين العلوم الطبيعية والعلوم الشرعية، فقد كان له في صناعة الآلات الدقيقة عجائب (ت 684).

وأما علماء القرن الثامن فيأتي على رأسهم:

مجدد القرن ابن دقيق العيد (ت 702) الذي قَلّ أن ترى العيون مثله ، وقد قبل السلطان المملوكي لاجين يده فقال له ابن دقيق العيد: أرجوها لك بين يدي الله.

والحافظ السبكي الكبير تقي الدين (ت 756)، وكان أقضى القضاة في مصر والشام، ووُصف بأنه امتلك من آلات الاجتهاد ما لم يمتلكه الشافعيّ.

وابنه أقضى قضاة الشام تاج الدين عبدالوهاب السبكي صاحب "طبقات الشافعية الكبرى".

وابنه -أيضاً- بهاء الدين السبكي اللغوي الكبير، صاحب كتاب "عروس الأفراح".

ومن العلماء خليل المالكي صاحب المختصر المشهور الذي أطبق عليه المالكية، وقد توفي سنة 767 ، رحمه الله تعالى.

ومنهم شرف الدين الدمياطي (ت 705) صاحب "المتجر الرابح في ثواب العمل الصالح" وهو كتاب مطبوع متداول معروف.

ومنهم ابن هشام النحوي المشهور (ت 761) وقد قال فيه ابن خلدون: كنا ونحن بالمغرب نسمع أنه قد ظهر بمصر عالم يقال له ابن هشام هو أنحى من سيبويه!! وقد كان له مصنفات في النحو ليس لها نظير، وضعها على نحو مبدع، رحمه الله تعالى.

أما القرن التاسع ففيه الحفاظ العظام:

العراقي زين الدين عبدالرحيم بن الحسين (ت 806) كان صالحاً متواضعاً، وابنه أبو زرعة وتوفي سنة 826، والهيثمي صاحب "مجمع الزوائد" وتوفي سنة 807.

ومن العلماء ابن عقيل شارح الألفية في النحو، وكان قاضي الديار المصرية (ت 769).

وابن حجر العسقلاني الامام المشهور صاحب "فتح الباري" وهو أحسن شرح لصحيح الامام البخاري (ت 852)، وقد كان قاضياً بالديار المصرية، وعظم قدره فيها، رحمه الله تعالى.

ومحمود العيني (ت 855) صاحب "عمدة القاري شرح صحيح البخاري" وإليه ينسب القصر العيني في مصر اليوم، وكان السلطان برسباي يقول: "لولا القاضي العيني ما حسن إسلامنا، ولا عرفنا كيف نسير في المملكة "، وذلك لأنه كان يدخل على سلاطين المماليك وينصحهم وينادمهم، رحمه الله تعالى.

ومن العلماء المقريزي أحمد بن علي (ت 840) المؤرخ المشهور صاحب "خِطط مصر".

ومن علماء ذلك القرن شيخ الإسلام عمر بن رسلان البُلقيني، مجتهد عصره (ت 805) ووُصف بأنه مجدد القرن الثامن، رحمه الله تعالى.

ومنهم الشيخ جلال الدين المِحَلِّي (ت 864) صاحب تفسير "الجلالين" الذي أتمه السيوطي، وكان علاّمة، آية في الذكاء والفهم، وكان بعض أهل عصره يقول عن ذهنه إنه يثقب الماس، وكان غُرة عصره في سلوك طريق السلف من الصلاح والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، يواجه بذلك أكابر الظلمة

والحكام، ويأتون إليه فلا يلتفت إليهم، ولا يأذن لهم بالدخول عليه، وكان مهاباً، صاحب كرامات كثيرة، متقشفاً في ملبوسه ومركوبه، رحمه الله تعالى.

وأما القرن العاشر ففيه جملة من العلماء على رأسهم:

الحافظ محمد بن عبدالرحمن السخاوي وقد توفي سنة 902 مجاوراً في مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم المشرفة المطهرة، وهو صاحب الكتاب التاريخي المعروف: "الضوء اللامع لأهل القرن التاسع"، وله كتب أخرى عديدة.

ومنهم الحافظ السيوطي المشهور ويعد أكثر عالم في تاريخ الاسلام فى عدد المؤلفات (ت 911).

ومنهم شيخ الإسلام زكريا الأنصاري المعمر (ت 926) الذي كان يصلي النوافل وهو قائم يتمايل ويهتز من الكبر فقد جاز المائة، وكان إذا سئل: لم لا تصلي قاعداً؟ قال: أخاف أن أعود نفسي الكسل!! ياالله!! أين نحن من أولئك العظماء، فلنبك على أنفسنا وتقصيرنا، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وفي الحلقة القادمة -إن شاء الله تعالى- سأكمل سرد العلماء المؤثرين من القرن الحادي عشر إلى بداية القرن الرابع عشر، القرن السابع عشر إلى بداية العشرين الميلادي.

علماء مصر بعد القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي:

قد كان في مصر جملة من العلماء العاملين بعد القرن العاشر الهجري/ السادس عشر الميلادي، على أن تلك القرون كانت تعد قرون انحطاط وبُعد عن الإسلام.

وكانت العامة تعاني كثيراً من الظلم وصعوبات الحياة وتسلط الباشوات والمماليك على الناس والاستيلاء على أموالهم بحجج لا تكاد تنتهي، وهذا ظهر بقوة منذ بدايات القرن الثاني عشر الهجري/ الثامن عشر الميلادي، ولم يكن للعامة بعد الله تعالى إلا أن يلجأوا إلى العلماء الذين لم يخيب أكثرهم ظن أولئك المساكين، ووقفوا بقوة أمام جبروت الحكام وظلمهم، وأستطيع أن أقول إن العلماء العاملين هم الذين كانوا يقودون الجماهير –آنذاك– ويحققون مطالبهم، وإليكم بعض الأمثلة الموضحة لهذا:

الشيخ علي بن أحمد الصعيدي العدوي المالكي، ولد سنة 1112 ببني عدي في الصعيد وينتسب إلى الفاروق عمر رضي الله عنه وانتقل إلى القاهرة، واجتهد في طلب العلم إلى أن صار عالم الديار المصرية.

وكان شديداً في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لا يحابي في إنكاره أحداً.

وكان ينهى عن التدخين بحضرته وبحضرة العلماء تعظيماً للعلم والعلماء، وإذا دخل إلى منزل أمير من الأمراء ورأى من يدخن شنّع عليه وكسر آلته ولو كان كبير الأمراء، فكان الأمراء إذا رأوه سارعوا بإخفاء آلات التدخين، وكان علي بك الكبير أمير مصر عاتياً متجبراً ومع ذلك إذا رأى الشيخ مقبلاً عليه سارع بإخفاء آلات التدخين خوفاً من الشيخ.

وكان علي بك يقبل يد الشيخ إذا دخل عليه!! وكان الشيخ يكتب شكاوى الناس في ورقة ويتكلم مع الأمير في كل شكوى منها، فكان الأمير يتضايق منها فيصيح الشيخ في وجهه قائلاً: لا تأسف فالدنيا

فانية، وسيسألنا الله عن تأخرنا في نصحك إن لم نفعل، ثم يمسك بيده ويقول: أنا خائف على هذه الكف من نار جهنم يوم الحساب.

ودخل عليه مرةً فشعر تلكؤاً من الأمير فخرج من عنده غاضباً، فارتبك الأمير وحاول اللحاق به معتذراً، فأبى الشيخ وأخذ يتلو قوله تعالى: (ولا تركنوا إلى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم لا تنصرون) ، وهكذا كان الشيخ أيضاً -رحمه الله تعالى- مع الأمير محمد بك أبو الذهب الذي جاء بعد علي بك الكبير.

واختلف الأمير يوماً مع الشيخ عبدالباقي العفيفي بسبب قضية فقهية انتصر الأمير فيها للرأي المخالف لرأي الشيخ، وأرسل إلى الشيخ من يجره من رقبته ويضع الحديد فيها وفي رجليه، ثم حبسه مع أرباب الجرائم!! فضغب الشيخ علي الصعيدي وجاء إلى مجلس الأمير وقال له: نحن أعلم بالأحكام الشرعية، فخاطب الأميرُ أحد المشايخ الذين حاولوا إفهامه الحكم الشرعي قائلاً: والله أكسر رأسك، فغضب الشيخ علي وقال له: لعنك الله، ولعن اليسرجي -أي تاجر العبيد- الذي جاء بك، ومن باعك ومن اشتراك ومن جعلك أميراً !! فتوسط الحاضرون من الأمراء يسكنون غضبه وغضب الأمير، وأحضروا الشيخ عبدالباقي من الحبس فأخذوه وخرجوا وهم يسبون الأمير!! وهكذا كان الشيخ رحمه الله مع من يتعدى حدود الشرع.

واستمر على طريقته الجميلة في قضاء حاجات الناس وصدع الأمراء بها إلى أن توفي بالقاهرة سنة 1774/1189، رحمه الله تعالى ونفعنا بعلمه.

ومنهم الشيخ أحمد بن أبي حامد العدوي المشهور بأحمد الدردير، ولد سنة 1715/1127 بصعيد مصر، وهو من نسل الفاروق عمر رضي الله عنه وكان قد درس العلوم على عدة مشايخ منهم الشيخ علي الصعيدي آنف الذكر، وكان آمراً بالمعروف وناهياً عن المنكر، لا يهاب أحداً، ولما توفي الشيخ علي الصعيدي عُين أحمد الدردير شيخاً للمالكية وناظراً على وقف الصعايدة.

ولما زار الوالي العثماني الأزهر ليستميل المشايخ حتى يمتنعوا عن مساندة العوام والثورة معهم رأى الشيخ الدردير جالساً ماداً قدميه وهو يقرأ ورده من القرآن، ولم يقم لاستقباله والترحيب به فغضب، فهدّأ أحد أفراد الحاشية من غضبه بأن قال له: هذا شيخ مسكين ضعيف العقل، ولا يفهم إلا كتبه، فأرسل الوالي إليه صرة نقود مع أحد العبيد فرفضها الشيخ وقال للعبد: قل لسيدك: "من مد رجليه فلا يمكن له أن يمد يديه".

وله مواقف عديدة مع الأمراء منها ما جرى مع الأمير يوسف الكبير حين منع طلبة العلم المغاربة من الاستفادة من أوقافهم الخيرية فرفعوا الأمر إلى القاضي فحكم لهم، لكن الأمير رفض الانصياع للحكم، فكتب له الشيخ الدردير يطالبه بالانصياع والقبول فرفض وطغى وبغى واحتقر الطلب ومَن حمله إليه، فما كان من الشيخ الدردير إلا أن اجتمع بالجامع مع الناس، وأبطل الدروس والأذان والصلوات فيه وأغلقه، وطلع الصغار على المنارات يصيحون على الأمراء ويدعون عليهم!! وهكذا ظل الأمر إلى أن أذعن الأمراء للحكم الشرعي.

وفي حالة أخرى رفض الأمير فيها أن يئوب إلى الحق فثار الشيخ والعلماء والعامة ومن وراءهم، وأغلق الناس محلاتهم، وحدثت مظاهرة كبيرة فاجتمع الأمراء وحذروا الأمير من عواقب صنيعه، واجتمع بالعلماء، وصارت مشادة عنيفة أذعن بعدها الأمير، لكن العلماء لم يرضوا حتى يجري صلح رسمي وتُكتب وثيقة فيها شروط على الأمراء بأن يتعهدوا بالتزام ما يقضي به القضاة من الأحكام الشرعية، وبقي الشيخ الدردير على سيرته الجميلة حتى توفي سنة 1201/1786.

ومنهم الشيخ سليمان المنصوري الأزهري، وقد وقف في وجه فرمان –قرار– عثماني أرسله الخليفة من اسطنبول إلى القاهرة سنة 1148 ويتضمن إلغاء بعض الأوقاف الخيرية وإضافتها إلى دائرة الوالي على مصر ليرسل غلّتها إلى اسطنبول، فاجتمع العلماء وقرأ القاضي العثماني منشور الخلافة ثم عقب عليه بقوله: أمر السلطان لا يخالف، وتجب طاعته بنص الشرع الشريف.

فقام الشيخ سليمان المنصوري وقال: يا شيخ الإسلام هذا شيء جرت به العادة في مدة الملوك المتقدمين، وتداوله الناس ورتبوه على خيرات ومساجد وأسبلة فلا يجوز إبطال ذلك، وإذا بطل بطلت الخيرات وتعطلت الشعائر المرصد لها ذلك، فلا يجوز لأحد يؤمن بالله ورسوله أن يبطله، وأن أمر ولي الأمر بإبطاله لا يُسَلّم له، ويخالَف أمره لأن ذلك مخالفة للشرع، ولا يُسَلَّم للإمام في فعل يخالف الشرع الكريم، فكان قوله ذلك سبباً في عدول الحكومة عما كانت تريد فعله، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء.

. ومنهم الشيخ أحمد بن موسى العروسي، وقد ولد سنة 1720/1133، وتولى مشيخة الأزهر سنة 1192 وظل في المشيخة إلى أن مات سنة 1218، وقد كان له مواقف مشهودة في الدفاع عن الناس أمام الأمراء، وقد اشتد الغلاء في مدة من المدد وضج الناس منه، فذهب العروسي إلى الوالي حسن باشا واتفق معه على وضع تسعيرة للخبز واللحم والسمن، وزالت الغمة بفضل الله تعالى على يد ذلك الشيخ.

وقد اجتمع مرةً مجلس الديوان لإقرار ما يطلبه الوالي العثماني من ضرائب على المصريين لمحاربة المماليك في الصعيد، فأنكر الشيخ العروسي هذا، فكظم الباشا غيظه وقال: هذا رأي السلطان، وشرع يقرأ منشوراً باللغة العثمانية، لكن العروسي قال: أخبرونا عن حاصل الكلام فإننا لا نعرف التركية، فيُترجم المنشور، ويفهم الشيخ أن الدولة تريد أن تفرض على المصريين ضرائب بغير حق شرعي فقال: إنني لا أعبأ أن يكون الحاكم من العثمانيين أو من المماليك، إنما أبحث عن مصالح الناس وأموال المسلمين، ثم يلتفت إلى العثمانيين الحاضرين في المجلس وقال لهم: اخرجوا إليهم للحرب ساعة فإما أن تَغلبوا وإما أن تُغلبوا، وسنستريح من الجميع فلم يسع الوالي والقائد مخالفته، وهؤلاء هم العلماء العاملون.

ومنهم الشيخ المؤرخ المعروف عبدالرحمن الجبرتي الذي كان والده حسن من علماء الأزهر، وقد ولد عبدالرحمن سنة 1756/1167، وطلب العلم الشرعي حتى صار من العلماء، وألف كتابه التاريخي المشهور "عجائب الآثار"، وأورده فيه تفصيلات لظلم المماليك والعثمانيين ومحمد علي باشا، ولم يأبه بالطغيان والظلم، فقتل محمد علي ابنه، وقيل إنه قتله هو أيضاً، وبعد قتله صودرت كتبه وأحرقت، وأحرقت داره، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

وقد قال الجبرتي في مقدمة كتابه: "سنورد –إن شاء الله– ما ندركه من الوقائع بحسب الإمكان، والخلو من الموانع، إلى أن يأتي أمر الله، وأن مردنا إلى الله، ولم أقصد بجمعه خدمة ذي جاه كبير، أو طاعة وزير أو أمير، ولم أداهن فيه دولة بنفاق، أو مدح أو ذم مباين للأخلاق" وذكر في كتابه كيف كان المماليك يحكمون مصر، وكيف كان تكالبهم على المال والجاه، وما جلبوه لمصر من محن ونكبات، وكيف كان أتباع أمراء المماليك يأخذون ما يحبون من الباعة دون ثمن، فإذا امتنع أحد قتلوه ونهبوا متجره، وكيف كانوا يخطفون النساء والأولاد، وكيف كانوا يدخلون بيوت بالناس ولا ينصرفون حتى يأخذوا ثياباً وأموالاً وطعاماً، وكيف كانوا يتهجمون على النساء ويأخذون حليهن، وكيف كانوا ينهبون الذهب والفضة من محلات الصاغة.

ولما جاء الفرنسيون سجل مخازيهم بالتفصيل في كتابه الجليل "مظهر التقديس في زوال دولة الفرنسيس".

ولما جاء محمد علي باشا مدحه الجبرتي فيما قام به من إصلاحات لكنه أظهر مساوئه ومساوئ ابنه إبراهيم بجلاء ووضوح وجرأة وإقدام وإنصاف، ولما فعل إبراهيم بأهل الصعيد ما فعل من مخازٍ وسوء قال: "ثم سافر إبراهيم راجعاً إلى الصعيد ليُتم ما بقي عليه لأهله من العذاب الشديد، فقد فعل بهم فعل التتار عندما جالوا بالأقطار، وأذل أعزة أهلها، وليس ذلك ببعيد على شاب جاهل، سنه دون العشرين عاماً، وحضر من بلده ولم ير غير ما هو فيه، لم يؤدبه مؤدب، ولا يعرف شريعة، ولا مأمورات، ولا منهيات".

وذاع في الناس نقد الجبرتي لمحمد علي وابنه إبراهيم وأشياعهما من الظالمين كمحمد الدفتردار وسليمان أغا السلحدار، فقتلوا ولده خليلاً، فحزن عليه الجبرتي فعمي بصره، ثم قُتل هو نفسه –على أصح الروايات– بعد مقتل ولده بثلاث سنوات سنة 1825/1240 ونُكل بتراثه، ولم يجد له في الأرض معيناً ولا نصيراً، وأرجو أن يكون جزاؤه عند الله –تعالى– أحسن الجزاء وأعظم الثواب.

هؤلاء بعض علماء مصر الذين أنجد الله -عز وجل- بهم العباد والبلاد، وكانوا محل ثقة الناس، وملجأ لهم بعد الله -سبحانه وتعالى- وكان لهم أيادٍ بيضاء على مصر في مدة مظلمة شاع فيها الظلم واستُسهل فيها الاعتداء على الناس، وضعف فيها الاستمساك بحبل الله تعالى والأخذ بالشرع المطهر، وهكذا ينبغي أن يكون العلماء في مقدمة الصفوف يحلون المشكلات ويأخذون على يد الظلمة، ويوقفون الولاة عند حدود الشرع فلا يجرأون على تجاوزها، فوجود أولئك العلماء في تلك العصور المظلمة هو فخر لمصر، ودلالة واضحة على أن العلماء هم صِمام أمان المجتمعات الإسلامية في كل زمان ومكان.

ومن علماء مصر الذين لن ينساهم الزمان، ولن يأتي مثلهم إلا بإذن الواحد الديان نقيب الأشراف عمر مكرم الأسيوطي (ت 1822/1237) وقد أوردت سيرته في حلقة "عظماء منسيون في التاريخ الحديث" فلا أعيده هاهنا وأحث القراء بقوة على العودة إلى تلك الحلقة فسيرته من عيون السِيَر، وهو شرف للعلماء العاملين ومجدهم وعزّهم، فاللهم أرنا مثله يا رب العالمين.

أبطال مصر :

وأما أبطال مصر الذين كانت لهم أياد بيضاء على أهل الإسلام فهم جملة وافرة كبيرة من الصحابة والتابعين الذين فتحوا مصر واستقروا بها، ومن ثم اتخذوها قاعدة لفتح الشمال الإفريقي، والكلام عنهم يطول لكني إنما أريد أن آتي بأبطال العصر الوسيط والحديث، لأنهم ممن تخفى تراجمهم أو يخفى أثرهم في مصر على غير المختصين، فمن هؤلاء الأمير الكبير حسام الدين لؤلؤ، أحد أكابر الأمراء في دولة صلاح الدين الأيوبي، وهو المسؤول عن الأسطول البحري المصري فكان شوكة في حلق الفرنجة، قال فيه الإمام ابن كثير: كان "البحر في البحر، فكم من شجاع قد أسر، وكم من مركب قد كسر، وكم من أسطول لهم قد فرّق شمله، ومن قارب قد غَرّق أهله، وقد كان مع كثرة جهاده دارّ الصدقات، كثير النفقات في كل يوم، وكان بديار مصر غلاء شديد فتصدق باثني عشر ألف رغيف لاثني عشر ألف نفس فجزاه الله خيراً، ورحمه في قبره، وبيض وجهه يوم محشره ومنشره، آمين".

ولما عمل أرناط الصليبي أمير الكرك مراكب في البحر الأحمر لينفذ بها إلى مدينة رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر ملك مصر العادل أبوبكر بن صلاح الدين الأمير حسام الدين لؤلؤ صاحب الأسطول أن يدرك أسطول الفرنجة ويحمي قبر النبي صلى الله عليه وسلم ففعل وأدرك أسطول الفرنجة فحرّق منه وغَرَّق، وسبى وأسر وقهر، وقَتَل بأمر من صلاح الدين نفسه كل من شارك من الصليبيين في هذه الحملة لأنهم اطلعوا على طريق الحجاز البحري، ولم يكن صلاح الدين يريد أن يبقى واحد من أولئك حياً حتى لا يعيد الكرة.

وقد أنجد حسام الدين لؤلؤ صلاح الدين في حصار عكا بخمسين سفينة، فلما وصل الأسطول إلى سواحل عكا حاد عنه الأسطول الصليبي يمنة ويسرة خوفاً منه، ولله الحمد والمنة"، فرحم الله تعالى ذلك البطل الكبير.

ومن أبطال مصر واليها المشهور صلاح الدين الأيوبي الذي عاش فيها مدة طويلة وقد صُقل في مصر، واكتسب تجارب وخبرات أهلته للسلطنة فيما بعد.

وكان له الفضل بعد الله –تعالى– في إنهاء الدولة العبيدية الرافضية الميمونية القداحية اليهودية التي تنسب زوراً وبهتاناً إلى فاطمة –رضي الله تعالى عنها– فيقال الدولة الفاطمية، فأنهى الدولة وأعاد مصر للخلافة العباسية.

وكان له الفضل بعد الله –تعالى– في إنقاذ مصر من الصليبيين المتربصين بها سوءاً، وفي ذلك كلام يطول وأحداث كثيرة لا يسعني إيرادها هاهنا.

أما فتحه بيت المقدس فتلك قصة جليلة رائعة، طويلة الذيول، كثيرة التفاصيل، لا أستطيع ايرادها في هذه العجالة، ولأني لا أورد –هاهنا– إلا ماله علاقة مباشرة بمصر والمصريين.

وإن ينس التاريخ أبطالاً فلن ينسى أبداً أبطال مصر الذين ردوا الحملة الصليبية الذي جاء على رأسها لويس التاسع ملك فرنسا واستولى على دمياط، فكمن له أبطال مصر وأذاقوه سوء العذاب، وأبادوا من جيشه عشرات الآلاف، وحبسوه في دار ابن لقمان بالمنصورة ووضعوا القيد في رجليه، ووكلوا به حارساً يُدعى صَبيحاً، وكانت وقعة جليلة، ولما عاد إلى بلاده ذليلاً مهيناً بعد فداء نفسه بمبلغ ضخم من المال حدثته نفسه بالعودة إلى الديار المصرية، فأنشأ الصاحب جمال الدين يحيى بن مطروح قصيدة رائعة وبعثها إليه فأحجم عن المجيء وأخذ الثأر، وهي:

قل للفرنسيس إذا جئتَه

مقالَ صدق من قؤول فصيح　　　أتيت مصر تبتغي مُلْكها

تحسب أن الزمر يا طبلُ ريح　　　وكلُّ أصحابك أودعتَهم

بحسن تدبيرك بطن الضريح وفقك الله لأمثالها

لعل عيسى منكمُ يستريح آجرك الله على ما جرى

من قتل عُبّاد يسوع المسيح فساقك الحَيْنُ إلى أدهم

ضاق به عن ناظريك الفسيح خمسون ألفاً لا ترى منهم

إلا قتيلاً أو أسيراً جريح إن كان باباكم بذا راضياً

فرُب غش قد أتى من نصيح وقل لهم إن أضمروا عودة

لأخذ ثأر أو لقصد صحيح دار ابن لقمانَ على حالها

والقيد باقٍ والطواشي صَبيح

ومنهم البطل الكبير قطز سلطان المماليك الذي كان له الأثر العظيم في معركة عين جالوت، وأوقف المد التتري الهمجي، وقد نصره الله -تعالى- ببركة طاعة سلطان العلماء العز بن عبد السلام، وكان قطز قد أدخله المجلس الحربي الذي عقد في القاهرة سنة 658، وقد ناهز العز الثمانين من عمره المبارك، يوم كان للعلماء رونق وبهجة وجلالة وسلطان على نفوس الحكام، وطلب قطز من العز أن يجوِّز للمماليك جمع ضريبة من المصريين من أجل جهاد التتار، فامتنع العز إلا بعد أن يجمع قطز كل أموال المماليك وحليهم وحلي نسائهم عنده وأن يقتصر كل الأمراء على دوابهم وسلاحهم فقط ويتساووا مع العامة ثم ينظر -إن لم يكف ذلك- في أمر الضرائب، أما أخذ أموال العامة مع بقاء ما في أيدي الجند من الأموال والآلات الفاخرة فلا، ففعل قطز ذلك ولم يسعه مخالفة العز البطل العظيم، ثم رأى العز أن ذلك غير كافٍ للجهاد فأفتى بأخذ الضرائب من المصريين، ثم قال للمجلس الحربي قولة عجيبة جداً: اخرجوا وأنا أضمن لكم على الله النصر، وما قال العز ذلك جرأة على الله -تعالى- ولا رجماً بالغيب إنما قاله لمعرفته بالسنن وأن المسلمين قد وصلوا إلى حد الاضطرار والله -تعالى- قد قال: (أَمَّن يُجِيبُ الْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ) ثم خرج المماليك إلى

لقاء التتار وكان ما كان من نصر عظيم مؤزر قاده البطل العظيم قطز، وساعده الظاهر بيبرس الذي طهر الأرض من التتار وأتبعهم بأبطال المماليك إلى أن أخرجهم من العراق، ولله الحمد والمنة.

ومن أبطال المصريين الأشرف خليل بن قلاوون (ت 693) الذي طهر الساحل الشامي من الصليبيين وأخرجهم من آخر معاقلهم عكّا سنة 690، بعد وفاة البطل صلاح الدين بقرن كامل، وكتب الله هذا الشرف للأشرف خليل -رحمه الله تعالى- وكان بطلاً شجاعاً مقداماً مهيباً، عاليَ الهمة، يملأ العين، ويُرْجِف القلب، وقد فتح إضافة إلى عكا بيروت وصور وصيدا وقلاعاً أخرى بحيث انقطع أثرهم تماماً من البلاد الشامية، ولله الحمد والمنة.

ومن أبطال مصر العالم الكبير ونقيب الأشراف عمر مكرم، وقد ذكرت صوراً من بطولته في سلسلة "عظماء منسيون في التاريخ الحديث" فليرجع إليها من شاء.

ومن أبطال المصريين محمد كريّم والي الإسكندرية زمن الحملة الفرنسية الباغية الهمجية على الديار المصرية 1798/1213 فقد قاتل قتال الأبطال وفعل كل ما في وسعه، لكن الأمر كان أكبر منه، وقتله نابليون بعد ذلك صبراً فى القاهرة وغدراً بعد أن طلب منه فدية ضخمة عجز عن دفعها، رحمه الله تعالى رحمة واسعة.

ومن أبطال مصر أحمد عرابي الذي ثار على الخديو توفيق عميل الانجليز، وحارب الإنجليز في وقت جبن فيه أكثر الناس وقعدوا، وله هنات وعليه بعض المؤاخذات في أخطاء ماكان له أن يفعلها وقد بينتها في حلقات الحملة الانجليزية على مصر، وقد بُثت في قناة اقرأ ،لكنه – في الجملة - بطل في وقت عز فيه وجود الأبطال،وقد حاول وبذل مافي وسعه لكن الأمر كان أكبر منه ، فرحمه الله رحمة واسعة هو وإخوانه الضباط الأبطال وعلى رأسهم الشاعر المصري الكبير الذي جدد الشعر بعد موات الضابط محمود سامي البارودي.

ومن أبطال مصر الضابط الكبير أحمد عبدالعزيز الذي دوخ إخوان القردة في فلسطين وكان له من جلائل الوقائع ما يُسطّر بمداد من نور على وجنات الحور، لكن إعلامنا إعلام رقص وغناء وتطبيل وتمثيل وإلا فأين

هو من أولئك العظماء الكبراء، هذا وقد جاء فى موسوعة" ويكيبيديا" موجزاً لجهاده واستشهاده، أوجزه بالتالي:

بعد قرار تقسيم فلسطين وانتهاء الانتداب البريطاني في 14 مايو 1948م وبعد ارتكاب العصابات الصهيونية لمذابح بحق الفلسطينيين العزل ثار غضب العالم العربي والإسلامي وانتشرت الدعاوى للجهاد في كل أرجاء الوطن العربى.

كان أحمد عبد العزيز أحد الذين استجابوا لدعوة الجهاد، فقام بتنظيم المتطوعين وتدريبهم وإعدادهم للقتال في معسكر الهايكستب، وقد وجهت له الدولة إنذاراً يخيره بين الاستمرار في الجيش أو مواصلة العمل التطوعي فما كان منه إلا أن طلب بنفسه إحالته إلى الاستيداع وكان برتبة القائمقام (عقيد).

بعد أن جمع ما أمكنه الحصول عليه من الأسلحة والذخيرة من قيادة الجيش وبعض المتطوعين وبعض الأسلحة من مخلفات الحرب العالمية الثانية بعد محاولة إصلاحها اتجه إلى فلسطين.

دخل الجيش المصري فلسطين عام 1948م ودخلت قوات منه إلى مدن الخليل وبيت لحم وبيت صفافا وبيت جالا في 20 مايو 1948م، وكانت هذه القوات مكونة من عدد من الجنود ونصف كتيبة من الفدائيين بقيادة أحمد عبد العزيز وكان يساعده اليوزباشي كمال الدين حسين واليوزباشي عبد العزيز حماد وكانت هذه القوات مزودة بالأسلحة الخفيفة وعدد من المدافع القوسية ومدافع من عيار رطلين بالإضافة إلى سيارات عادية غير مصفحة.

قبل أن يبدأ البطل الجهاد كان يجهز قواته نفسياً فكان يخطب فيهم قائلا: "أيها المتطوعون: إن حرباً هذه أهدافها لهي الحرب المقدسة، وهي الجهاد الصحيح الذي يفتح أمامنا أبواب الجنة، ويضع على هاماتنا أكاليل المجد والشرف، فلنقاتل العدو بعزيمة المجاهدين، ولنخشَ غضب الله وحكم التاريخ إذا نحن قصرنا في أمانة هذا الجهاد العظيم...".

بدأ أحمد عبد العزيز أول ما وصل إلى بيت لحم باستكشاف الخطوط الدفاعية للعدو، وكانت تمتد من تل بيوت ورمات راحيل في الجهة الشرقية الجنوبية للقدس بالقرب من قبة راحيل في مدخل بيت لحم الشمالي حتى مستعمرات بيت هكيرم وشخونات هبوعاليم وبيت فيجان ويفنوف ونشر قواته مقابلها.

عندما بدأت قوات الجيش المصري الرسمية تتقدم إلى فلسطين عرضت على أحمد عبد العزيز العمل تحت قيادتها، فتردد في بادئ الأمر لأن عمله مع المتطوعين كان يمنحه حرية عدم التقيد بالأوضاع والأوامر العسكرية ولكنه قَبِلَ في آخر الأمر.

وقد وضع الضابط الأردني عبد الله التل- متمرداً على أوامر قيادته- القوات الأردنية في كل المنطقة تحت تصرف أحمد عبد العزيز دون علم قيادة الجيش الأردني لإيمانه بوطنيته وإخلاصه.

كانت مستعمرة رمات راحيل تشكل خطورة نظراً لموقعها الاستراتيجي الهام على طريق قرية صور باهر وطريق القدس بيت لحم، فقرر أحمد عبد العزيز يوم 24 مايو 1948م القيام بهجوم على المستعمرة قاده بمشاركة عدد من الجنود والضباط من قوات الجيش الأردني.

بدأت المدفعية المصرية الهجوم بقصف المستعمرة زحف بعدها المشاة يتقدمهم حاملو الألغام الذين دمروا أغلب الأهداف المحددة لهم، ولم يجد اليهود إلا منزلاً واحداً احتمى فيه مستوطنو المستعمرة، وحين انتشر خبر انتصار أحمد عبد العزيز بدأ السكان يفدون إلى منطقة القتال لجني الغنائم، والتفت العدو للمقاتلين، وذهبت جهود أحمد عبد العزيز في إقناع الجنود بمواصلة المعركة واحتلال المستعمرة سدى ووجد نفسه في الميدان وحيداً إلا من بعض مساعديه مما أدى إلى تغير نتيجة المعركة بعدما وصلت تعزيزات لمستعمرة رمات راحيل قامت بعده العصابات الصهيونية بشن هجوم في الليل على أحمد عبد العزيز ومساعديه الذين بقوا، وكان النصر فيه حليف الصهاينة، والمؤرخون يقارنون بين هذا الموقف وموقف الرسول صلى الله عليه وسلم حين سارع الرماة إلى الغنائم وخالفوا أوامره في غزوة أحد وتحول النصر إلى الهزيمة.

القائد المصري أحمد عبد العزيز يفاوض القائد موشي ديان واقفا لرفضه الجلوس معه إلي طاولة واحدة.

في الوقت الذي استطاعت قوات الفدائيين بقيادة البطل أحمد عبد العزيز تكبيد العصابات الصهيونية خسائر فادحة فقطعت الكثير من خطوط اتصالاتهم وإمداداتهم، وساهمت في الحفاظ على مساحات واسعة من أرض فلسطين قبلت الحكومات العربية الهدنة مما أعطى للصهاينة الفرصة لجمع الذخيرة والأموال وإعادة تنظيم صفوفهم.

قاموا باحتلال قرية العسلوج لقطع مواصلات الجيش المصري في الجهة الشرقية وكانت قرية العسلوج مستودع الذخيرة الذي يمون المنطقة وفشلت محاولات الجيش المصري لاسترداد القرية فاستعانوا بالبطل أحمد عبد العزيز وقواته التي تمكنت من دخول هذه القرية والاستيلاء عليها.

حاول بعدها الصهاينة احتلال مرتفعات جبل المكبر المطل على القدس حيث كان هذا المرتفع أحد حلقات الدفاع التي تتولاها قوات أحمد عبد العزيز المرابطة في قرية صور باهر، ولكن استطاعت قوات أحمد عبد العزيز ردهم وكبدتهم خسائر كثيرة.

كان البطل فخوراً بجنوده وبما أحرزوه من انتصارات رائعة مما جعله يملي إرادته على الصهاينة، ويضطرهم إلى التخلي عن منطقة واسعة مهدداً باحتلالها بالقوة، وبعد هذه البطولات التي سطرها جاءت نهاية هذا البطل.

في 22 أغسطس 1948م دُعي أحمد عبد العزيز لحضور اجتماع في دار القنصلية البريطانية بالقدس لبحث خرق الصهاينة للهدنة، وحاول معه الصهاينة أن يتنازل لهم عن بعض المواقع التي في قبضة الفدائيين، لكنه رفض، واتجه في مساء ذلك اليوم إلى غزة حيث مقر قيادة الجيش المصري لينقل إلى قادته ما دار في الاجتماع.

كانت منطقة عراق المنشية مستهدفة من اليهود فكانت ترابط بها كتيبة عسكرية لديها أوامر بضرب كل عربة تمر في ظلام الليل، وعندما كان أحمد عبد العزيز في طريقه إليها بصحبة اليوزباشى صلاح سالم اشتبه بها أحد الحراس وظنها من سيارات العدو، فأطلق عليها الرصاص، فأصابت إحداها أحمد عبد العزيز فاستُشهد في الحال.

توجد مقبرة البطل أحمد عبد العزيز في قبة راحيل شمال بيت لحم، وله هناك نصب تذكاري شامخ، وقد أحاطته مؤخراً سلطات الاحتلال الإسرائيلي بسياج من الأسلاك الشائكة والأسوار العالية التي بها فتحات مراقبة لبنائها كنيساً يهودياً بالقرب منه، كما أطلقت رصاصة على شاهد قبره من قبل قوات الاحتلال ولكنها لم تكسره.

وقد سُمي أحد أهم وأرقى الشوارع بمصر على اسمه (شارع البطل أحمد عبد العزيز) تخليداً لذكرى هذا البطل العظيم، ويوجد هذا الشارع بمنطقة المهندسين بالقاهرة" ا.هـ.

ومن أبطال مصر الفريق سعد الدين الشاذلي الذي توفي سنة 2011/1432 وقد كان أسد حرب رمضان سنة 1393/ أكتوبر 1973 وقد غمطه السادات ثم مبارك حقه، وشرداه في الأرض، وأخملا ذكره، وتنكرا لجهده وعمله، ولم يكن يُذكر في الإعلام المصري أبداً حتى توفي، وبعد الثورة المصرية بدأ الإعلام ينصفه، ويبين جزءاً من حقه، وأرجو أن يعوضه الله – تعالى خيراً – في آخرته.

عباد مصر وزهادها وأولياؤها:

قد كان في مصر جملة وافرة من العباد والزهاد والأولياء الذين كانوا بعيدين عن الشطح والبدع، وضربوا أعظم الأمثلة في العبادة والزهد والولاية، فكان منهم :

سليم بن عِتْر التجيبي المصري قاضي مصر وناسكها، وهو من كبار التابعين، حضر خطبة الفاروق عمر بالجابية وحدث عنه وعن صحابة آخرين، وسُميَ الناسك لكثرة فِضله وشدة عبادته، وكان كثير الختم للقرآن، وهو أول قاص -أي واعظ- بمصر، توفي سنة 75، رحمه الله تعالى.

ومنهم حَيْوة بن شُريح التُجَيبيّ، أبو زرعة المصريّ المتوفى سنة 158، رحمه الله تعالى، وهو فقيه زاهد عابد، أحد سادة العباد والزهاد، قال عبدالله بن المبارك : ما وُصف لي أحد ورأيته إلا كانت رؤيته دون صفته إلا حَيوة بن شريح فإن رؤيته كانت أكبر من صفته.

وذو النون المصري ثوبان بن إبراهيم المتوفى سنة 245 - رحمه الله تعالى - الذي بهر المتوكل على الله الخليفة العباسي وأبكاه فرده مكرماً إلى مصر بعد أن حُمل إليه متهماً بالزندقة، وكان المتوكل بعد ذلك يقول: إذا ذُكر الصالحون فحيّ هلا بذي النون، وقد ورد عنه أقوال وأحوال لطيفة بعيدة عن الشطح الذي ابتلي به كثير من العباد بعد ذلك، فمما ورد عنه رحمه الله تعالى أنه كان يقول: الاستغفار جامع لمعانٍ:

أولها: الندم على ما مضى.

الثاني: العزم على الترك.

الثالث: أداء ما ضيعت من فرض الله.

الرابع: رد المظالم في الأموال والأعراض والمصالحة عليها.

الخامس: إذابة كل لحم ودم نبت على الحرام.

السادس: إذاقة ألم الطاعة كما وجدت حلاوة المعصية.

وكان في زورق فمر به زورق آخر، فقيل لذي النون: إن هؤلاء يمرون إلى السلطان يشهدون عليك بالكفر، فقال: اللهم إن كانوا كاذبين فغَرِّقهم، فانقلب الزورق وغرقوا، فقيل له: فما بال الملاح؟ قال: لم حملهم وهو يعلم قصدهم؟ ولأن يقفوا بين يدي الله غرقى خير لهم من أن يقفوا شهود زور، ثم انتفض وتغير وقال: وعزتك لا أدعو على أحد بعدها.

وقيل لذي النون: كيف خلصت من المتوكل وقد أمر بقتلك؟

قال: لما أوصلني الغلام قلت في نفسي: يا من ليس في البحار قطرات، ولا في دَيْلَج الرياح ديلجات -يعني والله أعلم دورة الرياح- ولا في الأرض خبيئات، ولا في القلوب خطرات إلا وهي عليك دليلات، ولك شاهدات، وبربوبيتك معترفات، وفي قدرتك متحيرات، فبالقدرة التي تجير بها مَن في الأرضين والسموات إلا صليت على محمد وعلى آل محمد وأخذت قلبه عني، فقام المتوكل يخطو حتى اعتنقني ثم قال: أتعبناك يا أبا الفيض.

ومنهم أبوبكر بن الحداد المصري الإمام الجليل الفقيه، كان كثير التعبد، يصوم يوماً ويفطر يوماً، ويختم في كل يوم وليلة ختمة، وقد روى عن مالك والليث وابن لهيعة والفضيل بن عياض وسفيان بن عيينة.

ومنهم بُنان الحمال الزاهد، المتوفى سنة 316 -رحمه الله تعالى- الذي أنكر على واحد من وجهاء أهل الذمة ركوبه الخيل في مصر، وأمره بالنزول وركوب الحمار، كما أُخذ عليهم في عهد الذمة، فبلغ الأمرَ خُمارويه بن أحمد بن طولون حاكم مصر فجوّع أسداً وأُلقي بنان بين يدي الأسد فكان يشمه ولا يؤذيه فرُفع من بين يديه وزاد تعظيم الناس له، فقيل له: كيف كان حالك وأنت بين يدي الأسد؟ فقال: لم يكن عليّ بأس ولكن كنت أفكر في سؤر السباع أهو طاهر أم نجس؟!

ومن كلامه: ذكر الله باللسان يورث الدرجات، وذكر الله بالقلب يورث القربات، وكان يُضرب بعبادته المثل.

وجاء إليه رجل يشكو ضياع وثيقة له على رجل ديناً بمائة دينار مصرية –وهي مبلغ ضخم آنذاك– وخاف أن ينكر الرجل الدين وطلب منه الدعاء فقال له: أنا رجل قد كبرت وأنا أحب الحلوى فاذهب فاشتر لي رطلاً، وائتني به حتى أدعو لك، فذهب الرجل وعاد بالحلوى وقد لُفّت بورقة فإذا هي وثيقته الضائعة!! فأخبر الشيخ بذلك فقال : خذ الحلوى وأطعمها صيبانك!!

ولما توفي خرج أكثر أهل مصر في جنازته، وكانت شيئاً عجباً، رحمه الله تعالى.

ومنهم أحمد بن نصر الدقاق، من أقران الجنيد، وكان من كلامه: مَن لم يصحبه التقى في زهده أكل الحرام المحض.

وقال: كنت ماراً في تيه بني إسرائيل فخطر ببالي أن علم الحقيقة مباين لعلم الشريعة، فهتف بي هاتف من تحت شجرة: كل حقيقة لا تتبع الشريعة فهي كفر، وهذا الذي ذكره يُعد قاعدة مهمة في علم الزهد والرقائق غفل عنها أهل الشطح والبدع فيما بعد.

ومنهم أبو علي الحسن بن أحمد الكاتب المصري المتوفى سنة 343،رحمه الله تعالى، وكان من كبار المصريين، وكان أوحد مشايخ زمانه، ومن كلامه إذا انقطع العبد إلى الله بكُليته أول ما يفيده الله الاستغناء به عن الناس.

ومنهم سند بن عثمان الأزدي، توفي بالإسكندرية سنة 541، كان من زهاد العلماء والفقهاء، ومن كبار الصالحين، رُئي في النوم فقيل له: ما فعل الله بك؟ قال: عُرضت على ربي فقال لي: أهلاً بالنفس الطاهرة الزكية العالمة.

ومنهم أبو الحسن علي بن محمد بن سهل الدينوري الصائغ الزاهد المتوفى سنة 331، رحمه الله تعالى، قال الذهبي: أحد المشايخ الكبار، وقال ابن كثير: ومن كراماته أنه رُئي يصلي بالصحراء في شدة الحر، ونسر قد نشر جناحيه يظله من الحر!!

وأنكر مرة على تكين أمير مصر شيئاً - وكان ظالماً- فأخرجه إلى بيت المقدس، فلما وصل القدس قال :كأني بالبائس، يعني تكين، وقد جيء به في تابوت إلى هنا، فإذا أُدني من الباب عثر البغل ووقع التابوت، فبال عليه البغل، فبعد مدة يسير حصل هذا الذي أخبر به الشيخ بحذافيره!! ثم ركب عائداً إلى مصر، وهذا الذي جرى على الشيخ هو من جملة الكرامات التي تحصل لأولياء الله -تعالى- ويصدقها أهل السنة والجماعة بشرط ثبوتها.

وقال: إذا سكن الخوف في القلب لم ينطق اللسان بما لا يعنيه.

- ومنهم أبو محمد محمد بن أحمد بن سهل الرملي الفايلي، كان عابداً صالحاً زاهداً، قوالاً بالحق، قال: لو كان معي عشرة أسهم رميت الروم بسهم ورميت بني عبيد بتسعة، فبلغ ذلك صاحب مصر المعز فجاء به فسأله فقال: لا، بل أرميهم بالعشرة كلها، فقتله سنة (363) قتلة شنيعة، رحمه الله تعالى ورضي عنه.

ومنهم أبو القاسم بن منصور المالكي الإسكندري المعروف بالقُبّاري (ت 662)، باع دابة لرجل، فأقامت أياماً لم تأكل عنده شيئاً، فجاء إليه وأخبره، فقال له الشيخ: ما صنعتك؟ قال: رقاص عند الوالي، فقال: إن دابتنا لا تأكل الحرام!!! ثم رد إليه دراهمه، الله أكبر، دوابه لا تأكل الحرام فكيف لو رأى زماننا هذا؟!

كان أولئك بعض أولياء مصر البعيدين عن البدع والشطح، ممن تمكنت من الوقوف على سيرهم مكتوبة منشورة، وأنا واثق أن مَن أوردتهم هم قطرة من بحر ، وغيض من فيض، لكن حسبي مثالاً مَن أوردتهم، والله أعلم.

شعراء مصر وأدباؤها:

قد كان بمصر جماعة كثيرة جداً من الأدباء والكتاب والشعراء، وقد كان لبعضهم آثار إسلامية جليلة، وعلى رأس أولئك القاضي الفاضل وزير صلاح الدين وأحد الأسباب الكبرى في تثبيته في معاركه، كما سيأتي إن شاء الله تعالى:

ومن هؤلاء الشعراء والكتاب والأدباء:

1. جميل العُذْري المشهور بجميل بثينة، أحد عشاق العرب، وإليه ينسب العشق العُذْريّ وهو شاعر إسلامي من أفصح شعراء زمانه، قدم مصر على عبدالعزيز بن مروان –والد الخليفة الراشدي عمر رضى الله عنه – فأكرمه، ومات بمصر سنة 120، رحمه الله تعالى.

2. كُثيِّر بن عبدالرحمن الخزاعي المشهور بكُثيِّر عزة، وكانت معشوقته، توفي قرابة سنة 160، أقام بمصر مدة يمدح عبدالعزيز بن مروان، والد الخليفة الراشدي عمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه ، وزار قبر عزة بمصر، ولما ماتت عزة ضعف شعره، فقيل له: ما بال شعرك قد قصرت فيه؟ فقال: ماتت عزة فلا أطرب، وذهب الشباب فلا أعجب، ومات عبدالعزيز بن مروان فلا أرغب، وإنما الشعر عن هذه الخلال.

3. نَصيب بن رباح، من شعراء الحماسة، توفي بمصر سنة 180.

4. أبو نواس الحسن ابن هانئ، وهو شاعر بغدادي مشهور بالمجون، وأقام بمصر مدة، وتوفي سنة 199 رحمه الله تعالى، وقد رآه بعض أصحابه في المنام فقال له: ما فعل الله بك ؟ فقال: غفر لي بأبيات قلتها في النرجس:

تفكر في نبات الأرض وانظر إلى آثار ما صنع المليك

عيون من لُجَيْنٍ شاخصات بأبصار هي الذهب السبيك

على قُضُب الزبرجد شاهدات بأن الله ليس له شريك

وفي رواية عنه أنه قال: غفر لي بأبيات قلتها وهي تحت وسادتي، فجاؤوا فوجدوها برقعة في خطه :

يا رب إن عظمت ذنوبي كثرة

فلقد علمت بأن عفوك أعظم   أدعوك ربي كما أمرت تضرعاً

فإذا رددت يدي فمن ذا يرحم   إن كان لا يرجوك إلا محسن

فبمن يلوذ ويستجير المجرم   مالي إليك وسيلةٌ إلا الرجا

وجميل عفوك ثم إني مسلم

5. أبو تمام حبيب بن أوس الطائي، وهو شامي لكنه كان في حداثته في مصر يسقي الماء في المسجد الجامع ثم شاع ذكره وجاد شعره وسار، وبلغ خبره المعتصم فحمل إلى بغداد، وتوفي سنة 231، رحمه الله تعالى، وهو القائل:

السيف أصدق أنباء من الكتب   في حده الحد بين الجد واللعب

6. ابن طباطبا، عبدالله بن أحمد بن علي، الشريف الحسني المصريّ، نقيب الطالبيين، توفي سنة 345.

7. المتنبي أحمد بن الحسين وقد أقام في مصر عند كافور أربع سنين يمدحه، وله شعر بلغ الغاية في الرقة والروعة والجمال، توفي مقتولاً سنة 354.

8.القاضي الفاضل عبدالرحيم بن علي اللخمي البَيْساني ثم العسقلاني ثم المصري، الوزير الكبير وزير صلاح الدين الأيوبي، رحمهما الله تعالى.

له آثار حميدة وأفعال جميلة رائعة، توفي سنة 590 ودفن بالقرافة، وهو من كبار أدباء العربية، وله نثر رائع وشعر كثير، ونثره أجود من شعره، لكن أحسن أعماله على الإطلاق مساندته لصلاح الدين وتثبيته له في رسائلَ جليلةٍ جداً، حتى قال صلاح الدين لقواده: لا تظنوا أني فتحت البلاد بسيفي لكن بقلم القاضي الفاضل، ومن تلك الرسائل قوله لصلاح الدين لما حاصر عكا ثلاث سنين متصلة في أحوالٍ عصيبة وقوارع مخيفة فاستبطأ النصر:

"إنما أُتينا من قِبَل أنفسنا، ولو صَدَقْناه لعجَّلَ لنا عواقب صدقنا، ولو أطعناه لما عاقبنا بعدونا، ولو فعلنا ما نقدر عليه من أمره لفعل لنا ما لا نقدر عليه إلا به، فلا يستخصم أحد إلا عمله، ولا يلم إلا نفسه، ولا يرجُ إلا ربه، ولا تنتظر العساكر أن تكثر، ولا الأموال أن تحضر، ولا فلان الذي يُعتقد عليه أن يقاتل، ولا فلان الذين يُنتظر أنه يسير، فكل هذه مشاغل عن الله ليس النصر بها ولا نأمن أن يكلنا الله إليها، والنصر به، واللطف منه، والعادة الجميلة له، ونستغفر الله سبحانه من ذنوبنا فلولا أنها مسد طريق دعائنا لكان جواب دعائنا قد نزل، وفيض دموع الخاشعين قد غسل، ولكن في الطريق عائق، خار الله لمولانا في القضاء السابق واللاحق"، الله أكبر، ما أحسن هذا الكلام.

ومن كتاب آخر:

"وعسكرنا لا يشكو – والحمد لله– منه خَوَراً، وإنما يشكو منه ضجراً، والقوى البشرية لابد أن يكون لها حدّ، والأقدار الإلهية لها قصد، وكل ذي قصد خادم قصدها، وواقف عند حدها، وإنما ذكر المملوك هذا ليرفع المولى من خاطره مقت المتقاعس من رجاله، كما يثبت في شكر المسارع من أبطاله، قال الله – تعالى : (فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ)

يا مولانا: أليس الله –تعالى– اطَّلع على قلوب أهل الأرض فلم يؤهل ولم يستصلح ولم يختر ولم يُسهل ولم يستعمل ولم يستخدم في إقامة دينه وإعلاء كلمته وتمهيد سلطانه وحماية شعاره وحفظ قبلة موحديه إلا أنت، هذا وفي الأرض مَن هو للنبوة قرابة، ومَن له المملكة وراثة، ومن له في المال كثرة، ومن له في العدد ثروة، فأقعدهم وأقامك، وكسَّلهم ونشَّطك، وقبضهم وبسطك، وحبب الدنيا إليهم وبغَّضها إليك، وصعبها

عليهم وهونها عليك، وأمسك أيديهم وأطلق يدك، وأغمد سيوفهم وجرّد سيفك، وأشقاهم وأنعم عليك، وثبطهم وسَيّرك: (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِن كَرِهَ اللهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَعِدِينَ)

نعم وأخرى أهم من الأولى أنه لما اجتمعت كلمة الكفر من أقطار الأرض وأطراف الدنيا ما تأخر منهم متأخر، ولا استبعد المسافة بينك وبينهم مستبعد، وخرجوا من ذات أنفسهم الخبيثة لا أموال تنفق فيهم، ولا ملوك تحكم عليهم، ولا عصا تسوقهم، ولا سيف يزعجهم، مُهطعين إلى الداعي، ساعين في أثر الساعي، وهم من كل حدب ينسلون، ومن كل بر وبحر يقبلون، كنت يا مولانا -كما قيل- أبقاك الله:

ولستَ بملك هازمٍ لنظيره ولكنك الإسلام للشرك هازم

هذا وليس لك من المسلمين كافة مساعدة إلا بدعوة، ولا مجاهد معك إلا بلسانه، ولا خارج معك إلا بهمّ، ولا خارج بين يديك إلا بالأجرة، ولا قانع منك إلا بزيادة، تشتري منهم الخطوات شبراً بذراع، وذراعاً بباع، تدعوهم إلى الله وكأنما تدعوهم إلى نفسك، وتسألهم الفريضة كأنك تكلفهم النافلة، وتعرض عليهم الجنة وكأنك تريد أن تستأثر بها دونهم.

والآراء تختلف بحضرتك، والمشورات تتنوع بمجلسك، فقائل: لم لا نتباعد عن المنزلة، وآخر: لم لا نميل إلى المصالحة، ومتندم على فائت ما كان فيه حظ، ومشير بمستقبل ما يلوح فيه رشد، ومشير بالتخلي عن عكا حتى كأن تركها تغليق المعاملة (2- أي نهاية الجهاد مع الكفار. 2- أي نهاية الجهاد مع الكفار. [I])، وما كأنها طليعة الجيش ولا خَرَزة السلك إن وهت تداعى السلك، فألهمك الله قتل الكافر، وخلاف المخذّل، والتجلد وتحت قدمك الجمر، وأفرشك الطمأنينة وتحت جنبك الوعر :

ولكن مولانا صفيحة وجهه كضوء شهاب القابس المتنور

[I] - أي نهاية الجهاد مع الكفار.

قليل التشكي للمهم نصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك

لا شبهة أن المملوك قد أطال، ولكن قد اتسع المجال، وما مراده إلا أن يشكر الله على ما اختاره له ويسره عليه، وحببه إليه، فرب ممتحن بنعمة، ورب منعم عليه بمشقة، وكم مغبوط بنعمة هي داؤه، ومرحوم من بلوى هي دواؤه، ويريد المملوك بهذا أن لا يتغير لمولانا –أبقاه الله– وجه عن بشاشة، ولا صدر عن سعة، ولا لسان عن حسنة، ولا تُرى منه ضجرة، ولا تُسمع منه نَهْرَة، فالشدة تذهب ويبقى ذكرها، والأزمة تنفرج ويبقى أجرها، وكما لم يُحدث استمرار النعم لمولانا –عز نصره– بطراً فلا تُحدث له ساعات الامتحان ضجراً، والمملوك يستحسن بيتي حاتم، ومولانا –أبقاه الله وخلد سلطانه وملكه– يحفظهما :

شربنا بكأس الفقر يوماً وبالغنى وما منهما إلا سقانا به الدهر

فما زادنا بغياً على ذي قرابة غنانا ولا أزرى بأحسابنا الفقر

والمملوك بأن يسمع أن مولانا –عز نصره– على ما يعهده من سعة صدره أسرُّ منه بما يسمعه من بشائر نصره، وياليتني كنت معهم، وماذا كانت تصنع الأيام إما شيباً من مشاهدة الحروب، فقد شبنا والله من سماع الأخبار، أو غُرماً يمكن خُلفه من الوفْر(3- أي كثرة المال. 3- أي كثرة المال.[3]) فقد غرمنا في بعد مولانا ما لا خُلف له من العمر، أو مرض جسم فخيره ما كان الطبيب حاضره، ولقد مرضنا أشدَّ المرض لفراقه إلا أن التجلد ساتره".

ومن كتاب آخر:

"قيل للمهلب(4- هو المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف. 4- هو المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف.[4]): أيسُرُّكَ ظفر ليس فيه تعب؟ فقال : أكره عادة العجز.

ولابد أن تنفذ مشيئة الله في خلقه، لا رادّ لحكمه فلا يتسخط مولانا بشيء من قدره، فلأن يجري القضاء وهو راض مأجور خير من أن يجري وهو ساخط موزور، من شكا بثه وحزنه إلى الله شكا إلى مشتكى

[3] – أي كثرة المال.

[4] – هو المهلب بن أبي صفرة القائد المعروف.

واستغاث بقادر، ومن دعا ربه خفياً استجاب له استجابة ظاهرة، فلتكن شكوى مولانا إلى الله خفية عنا، ولا يقطع الظهور التي لا تشتدّ إلا به، ولا يُضيق صدوراً لا تنفرج إلا منه، وما شرد الكرى(5- أي النعاس والنوم: وانظر "لسان العرب": كرا. Ò)، وأطال على الأفكار ليل السُّرى(6- السُّرى: سير عامة الليل: وانظر "لسان العرب": سرى. Ó) إلا ضائقة القوت بعكا، ولم يبق إلا ضَعْفٌ نعم المعين عليه ترويح النفس وإعفاؤها من الفكر، فقد علم مولانا بالمباشرة أنه لا يُدَبِّرُ الدهر إلا برب الدهر، ولا ينفذ الأمر إلا بصاحب الأمر، وأنه لا يقلّ الهم إن كثر الفكر:

قد قلت للرجل المقسَّم أمرُه   فوض إليه تنم قرير العين

وكل مقترح يجاب إليه إلا ثغراً يصير نصرانياً بعد أن أسلم، أو بلداً يخرس فيه المنبر بعد أن تكلم، يا مولانا: هذه الليالي التي رابطت فيها والناس كارهون، وسهرت فيها والعيون هاجعة، وهذه الأيام التي ينادى فيها: ياخيل الله اركبي، وهذه الساعات التي تزرع الشيب في الرؤوس، هي نعمة الله عليك، وغراسك في الجنة: (يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا) وهي مجوِّزاتك على الصراط، وهي مثقلات الميزان، وهي درجات الرضوان، فاشكر الله عليها كما تشكره على الفتوحات الجليلة، واعلم أن مثوبة الصبر فوق مثوبة الشكر.

من ربط جأش أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضى الله عنه قوله: "لو كان الصبر والشكر بعيرين ما باليت أيهما ركبت"، وبهذه العزائم سبقونا وتركونا لا نطمع في اللحاق بالغبار، وامتدت خطاهم ونعوذ بالله من العِثار، ما استعمل الله في القيام بالحق إلا خير الخلق، وقد عرف ما جرى في سير الأوّلين، وفي أنباء النبيين، وأن الله – تعالى– حرض نبيه صلى الله عليه وسلم على أن يهتدي بهداهم، ويسلك سبيلهم، ويقتدي بأولي العزم منهم.

Ò – أي النعاس والنوم: وانظر "لسان العرب": كرا.

Ó – السُّرى: سير عامة الليل: وانظر "لسان العرب": سرى.

وما ابتلى الله –سبحانه– من عباده إلا مَن يعلم أنه يصبر، وأمور الدنيا ينسخ بعضها بعضاً وكأن ما قد كان لم يكن، ويذهب التعب ويبقى الأجر، وإنما يقظات العين كالحلم، وأهم الوصايا أن لا يحمل المولى هماً يضعف به جسمه، ويضر مزاجه، والأمة بنيان وهو – أبقاه الله تعالى– قاعدته، والله يثبت تلك القاعدة القائمة في نصرة الحق.

ومما يستحسن من وصايا الفرس: "إن نزل بك ما فيه حيلة فلا تعجز، وإن نزل بك ما ليس لك فيه حيلة –والعياذ بالله– فلا تجزع"، ورب واقع في أمر لو اشتغل عن حمل الهم به بالتدبير فيه مع مقدور الله لا نصرف همه، وما تشاؤون إلا أن يشاء الله.

هذا سلطان هو بحول الله أوثق منه بسلطانه، قاتلت الملوك بطمعها وقاتل هذا بإيمانه، وإذا نظر الله إلى قلب مولانا فلم يجد فيه ثقة بغيره، ولا تعويلاً على قوة إلا على قوته فهنالك الفرج ميعاده، واللطف ميقاته، فلا يقنط من روح الله، ولا يقل متى نصر الله، وليصبر فإنما خلق للصبر، بل ليشكر فالشكر في موضع الصبر أعلى درجات الشكر، وليقل لمن ابتلى: أنت المعافي، وليرض عن الله –سبحانه– فإن الراضي عن الله هو المسَلِّم الراضي".

وكتب السلطان إلى القاضي الفاضل كتاباً من بلاد الفرنج يخبره عما لاح له من أمارات النصر ويقول: ما أخاف إلا من ذنوبنا أن يأخذنا الله بها، فكتب إليه الفاضل:

"فأما قول المولى: إننا نخاف أن نؤخذ بذنوبنا، فالذنوب كانت مثبتة قبل هذا المقام وفيه محيت، والآثام كانت مكتوبة ثم عُفِي عنها بهذه الساعات وعَفِيَتْ(7– أي تلاشت ومُحيت.[Ô])، فيكفي مستغفراً لسانُ السيف الأحمر في الجهاد، ويكفي قارعاً لأبواب الجنة صوتُ مقارعة الأضداد، ولعين الله موقفك، وفي سبيل الله مقامك ومنصرفك، وطوبى لقدم سعت في منهاجك، وطوبى لنفس بين يديك قتلت وقُتلت، وإن

[Ô] – أي تلاشت ومُحيت.

الخواطر تشكر الله فيك وعن شكرها لك قد شُغلت"(8-"الثبات": 66-.75[õ]).الله اكبر ما أجمل هذا الكلام وما أحسنه، وليت الأدباء كلهم يكتبون كما يكتب القاضي الفاضل، لكننا بلينا اليوم بأدباء الحداثة الذين يدور كلامهم على الكفر أو الضلال أو المِلال وعدم الفهم وتضييع الزمان بالترهات والأوهام.

وقد ذكر ابن حجة القاضي الفاضل فقال:

"كان نظم القاضي الفاضل -رحمه الله- ونثره كفرسي رهان، ولكن نثر أكثر مما نظم، وأجمع الناس أنه أتى مع الإكثار بالعجائب، وذكر قاضي القضاة شمس الدين بن خلكان في تاريخه أن مسودات رسائله إذا جمعت ما تقصر عن مائة مجلد... ولعمري إن الإنشاء الذي صدر في الأيام الأموية والأيام العباسية نُسي وأُلغي بإنشاء الفاضل وما اخترعه من النكت الأدبية والمعاني المخترعة والأنواع البديعة، والذي يؤيد قولي قول العماد الكاتب في "الخريدة" أنه في صناعة الإنشاء كالشريعة المحمدية نسخت الشرائع".

9. ابن سناء الملك هبة الله بن جعفر بن محمد الشاعر المشهور، درس الحديث والنحو، وكان شاعراً بارعاً، توفي سنة 658، رحمه الله تعالى.

10. البوصيري صاحب البردة في مدح النبي الأعظم صلى الله عليه وسلم الشاعر المشهور، وله شعر عجيب جليل، توفي سنة 695، رحمه الله تعالى.

11. شهاب الدين أحمد بن محي الدين بن فضل الله الأديب البليغ، الناظم، الناثر، صاحب "مسالك الأنظار في ممالك الأمصار" توفي سنة 749.

12. ابن نُباتة، محمد بن محمد بن محمد الجذامي المصري المشهور صاحب الخطب البليغة المعروفة باسمه، وفاق أهل زمانه في النظم والنثر، توفي بالقاهرة سنة 768، رحمه الله تعالى.

[õ] -"الثبات": 66-75.

13. شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي، الأديب المصري المشهور ، وصاحب الحاشية على كتاب "الشفا في التعريف بحقوق المصطفى" للقاضي عياض، وله شعر رقيق، وقد ولي القضاء في مصر وفي الدولة العثمانية، وتوفي سنة 1069، رحمه الله تعالى.

هؤلاء هم بعض شعراء مصر وأدبائها وكتابها ولو أردت التوسع لأتيت بشيء مهول لكن حسبي ما ذكرت وفيه زاد وبلاغ، والله أعلم.

علماء الطبيعة والحكماء والفلاسفة:

قد كان بمصر جماعة من علماء العلم الطبيعي وعلوم الحكمة والطب والفلسفة، وكان لهم باع كبير في تأسيس الحضارة الإسلامية، فمن هؤلاء:

1. أبو الحسن علي بن الإمام الحافظ أبي سعيد بن يونس صاحب تاريخ مصر، وكان ولده -كما قال ابن كثير- منجماً، شديد الاعتناء بعلم الفلك، مرجعاً في آلات هذا الفن ومنه ما يسمى بـ "الزيج الحاكمي"، توفي سنة 399 رحمه الله تعالى.

2. أبو الصلت أمية بن عبدالعزيز بن أبي الصلت الداني، قال الذهبي: كان رأساً في معرفة الهيئة -أي الفلك- والنجوم والموسيقى والطبيعي والرياضي والإلهي، كثير التصانيف، بديع النظم، توفي سنة 528، رحمه الله تعالى.

3. شرف الدين عبدالله بن علي، الشيخ السديد، شيخ الطب بالديار المصرية، توفي سنة 592 رحمه الله تعالى.

4. القطب المصري، أبو إسحاق إبراهيم بن علي السلميّ، سافر إلى المشرق وأخذ عن الرازي وكان من أشهر تلامذته، وألف كتباً كثيرة في الطب والحكمة منها شرح كليات القانون لابن سينا، وقد قتله التتار بنيسابور لما استولوا عليها سنة 618 رحمه الله تعالى.

5. أفضل الدين الخونجي محمد بن ناماوار بن عبدالملك الفيلسوف، برع في علوم الأوائل حتى صار متفرداً فيها وشرح مقالة ابن سينا، وله كتب عديدة، وولي قضاء الديار المصرية بعد عزل سلطان العلماء العز بن عبدالسلام، رحمه الله تعالى، ومن اللطائف أن الإمام السيوطي قال في ذلك: "فاعتبروا يا أولي الأبصار،

يُعزل شيخ الإسلام وإمام الأئمة شرقاً وغرباً ويُولى عوضه رجل فلسفي، الدهر يأتي بالعجائب"، توفي سنة 649 رحمه الله تعالى.

6.ابن البيطار المالقيّ، عبدالله بن أحمد، الطبيب البارع، انتهت إليه معرفة أنواع النبات وصفاته وأماكنه ومنافعه، بل يعد أعظم عالم نبات ظهر في القرون الوسطى، وذكر في كتبه 300 نوع من النباتات لم يعرفها طبيب قبله، وهو صاحب كتاب "الجامع في الأدوية المفردة" وهو كتاب ليس له نظير ألّفه على طريقة بديعة عجيبة، استقر في مصر، وخدم الملك الأيوبي الكامل الذي عينه رئيساً على سائر العشابين، وبعد وفاة الكامل خدم الملك الصالح نجم الدين أيوب توفي بدمشق سنة 646، رحمه الله تعالى.

7.ابن النفيس، العلامة المشهور علاء الدين علي بن أبي الحزم القرشي، شيخ الطب بالديار المصرية وصاحب الكتب النفيسة منها "الشامل في الصناعات الطبية"، و"شرح تشريح قانون ابن سينا" و"شرح الأدوية المركبة" وقد ترجم إلى اللاتينية وله كتب غير ذلك طبية وشرعية، وكان صاحب ذكاء مُفْرط، وذهن حاذق، مع مشاركة في الفقه والأصول والحديث والعربية والمنطق، وهو مكتشف الدورة الدموية الصغرى التي ينسبها الغرب زوراً وبهتاناً لهارفي، وأحد رواد علم وظائف الأعضاء في الإنسان، حيث وضع نظريات يعتمد عليها العلماء إلى الآن ويعده الكثيرون أعظم أطباء العصور الوسطى.

عمل في المستشفى الناصري ثم المستشفى المنصوري الذي أنشأه السلطان قلاوون وكان رئيس الأطباء فيه، ثم أصبح الطبيب الخاص للسلطان الظاهر بيبرس.

توفي في القاهرة سنة 687، وعندما حضرته الوفاة –وكان من أبناء الثمانين– مرض ستة أيام مرضاً شديداً فحاول الأطباء معالجته بالخمر فقال: لا ألقى الله تعالى وفي جوفي شيء من الخمر، رحمه الله تعالى.

وقد أوقف داره وكتبه وكل ما له على المستشفى المنصوري في القاهرة قائلاً: إن شموع العلم يجب أن تضيء بعد وفاتي.

وقد جاء في موسوعة "ويكيبيديا" وصف جيد لأعماله ومكتشفاته، اصطفيت منه ما يلي:

"عام 1242- أي 639 هجرية - نشر ابن النفيس أكثر أعماله شهرة، وهو كتاب "شرح تشريح قانون ابن سينا"، الذي تضمن العديد من الاكتشافات التشريحية الجديدة، وأهمها نظريته حول الدورة الدموية الصغرى وحول الشريان التاجي، وقد اعتبر هذا الكتاب أحد أفضل الكتب العلمية التي شرحت بالتفصيل مواضيع علم التشريح وعلم الأمراض وعلم وظائف الأعضاء، كما صوّب فيه العديد من نظريات ابن سينا.

بعد ذلك بوقت قصير، بدأ العمل على كتابه "الشامل في الصناعة الطبية، الذي نشر منه 43 مجلد في عام 1244 – أي سنة 641 هجرية - وعلى مدى العقود التالية، كتب 300 مجلد لكنه لم يستطيع نشر سوى 80 مجلداً فقط قبل وفاته، وبعد وفاته حلّ كتابه هذا محل "قانون" ابن سينا موسوعةً طبية شاملة في العصور الوسطى، مما جعل المؤرخين يصفونه بأنه "ابن سينا الثاني".

كان ابن النفيس قبل ذلك قد كتب كتابه "شرح الأدوية المركبة"، تعقيبًا على الجزء الأخير من قانون ابن سينا الخاص بالأدوية، وقد ترجمه "أندريا ألباجو" إلى اللاتينية في عام 1520- أي 926 هجرية - ونشرت منه نسخة مطبوعة في البندقية في عام 1547 – أي 954 هجرية - والتي استفاد منها ويليام هارفي في شرحه للدورة الدموية الكبرى.

اتصفت آراء ابن النفيس في الطب بالجرأة، فقد فنّد العديد من نظريات ابن سينا وجالينوس وصوّبها.

فُقد العديد من مؤلفات ابن النفيس عقب سقوط بغداد عام 1258 –أي 656 هجرية - الذي شهد خسارة وتدمير العديد من الكتب المهمة لكثير من علماء المسلمين.

اكتشافه للدورة الدموية الصغرى:

يعتبر اكتشافه للدورة الدموية الصغرى أحد أهم إنجازاته، حيث قال:

"إن الدم ينقى في الرئتين من أجل استمرار الحياة وإكساب الجسم القدرة على العمل، حيث يخرج الدم من البطين الأيمن إلى الرئتين، حيث يمتزج بالهواء، ثم إلى البطين الأيسر".

كان الرأي السائد في ذلك الوقت، أن الدم يتولد في الكبد ومنه ينتقل إلى البطين الأيمن بالقلب، ثم يسري بعد ذلك في العروق إلى مختلف أعضاء الجسم.

ظل اكتشاف ابن النفيس للدورة الدموية الصغرى (الرئوية) مجهولاً للمعاصرين حتى عثر محيي الدين التطاوي عام 1924- أي 1342 هجرية - أثناء دراسته لتاريخ الطب العربي على مخطوط في مكتبة برلين رقمه 62243 بعنوان "شرح تشريح القانون"، فعُني بدراسته وأعد حوله رسالة للدكتوراه من جامعة فرايبورج بألمانيا موضوعها "الدورة الدموية عند القرشي"- أي ابن النفيس ، وكان هذا أحد ألقابه - ولجهل أساتذته بالعربية أرسلوا نسخة من الرسالة للمستشرق الألماني مايرهوف (المقيم بالقاهرة وقتها)، فأيد مايرهوف التطاوي، وأبلغ الخبر إلى المؤرخ جورج سارتون الذي نشره في آخر جزء من كتابه "مقدمة إلى تاريخ العلوم".

8. أبو العباس شهاب الدين أحمد بن رجب بن طِيْبغا، المعروف بابن المجدي،وطيبغا كان أحد أمراء المماليك الكبار.وابن المجدي عالم رياضي وفلكي، ولد بالقاهرة سنة 767 هـ-1366 م -.

قال السخاوي في ترجمته أنه " صار رأس الناس في أنواع الحساب، والهندسة، والهيئة، والفرائض، وعلم الوقت بلا منازع".

وقال السيوطي: "اشتغل، وبرع في الفقه، والنحو، والفرائض، والحساب، والهيئة، والهندسة...". ترك آثاراً عديدة وُجد بعضها في مكتبات القاهرة وليدن وأكسفورد، وأشهرها: "الدر اليتيم في صناعة التقويم"، "إرشاد الحائر إلى تخطيط فضل الدوائر" في علم الهيئة -أي الفلك-، "تعديل القمر"، "تعديل زحل".

وقد حفظ القرآن الكريم ودرس ألفية ابن مالك في النحو، وتفقه على كتاب أبي زكريا يحيى النووي "منهاج الطالبين وعمدة المفتين"، وتفقه على مجموعة من الشيوخ منهم: أبو البقاء الدميري، وجمال الدين محمد بن المارديني،و سراج الدين البُلقيني.

وقد جد ابن المجدي في طلب العلم، وبرع في عدة فنون وعلوم، ووُصف بفرط الذكاء، وبأنه كان رأس الناس في كثير من العلوم وفي مقدمتها: علم الفلك والرياضيات من حساب مثلثات والحساب العددي والهندسة والجداول الرياضية والتقويم والنحو والفقه.

وتخرج على يديه مجموعة من التلاميذ صاروا علماء، ومن أشهرهم: ابن الجيعان أبو زكريا الدمياطي الذي لازم ابن المجدي، وأخذ عنه علوم الرياضيات وتفوق فيها، والمناوي حسن بن على بن محمد البدر وأخذ عنه الحساب والفلك.

وكان ابن المجدي يعيش ملازماً لداره المجاورة لجامعة الأزهر ، وقد استغنى عن الحاجة إلى غيره؛ فقد كان يعيش من عائد أرض وعقارات ورثها عن أبيه وجده، بل إنه كان ينفق من ماله على طلبته الفقراء.

وقد استمر ابن المجدي في طريقة حياته الجميلة إلى أن ودع الدنيا عن عمر بلغ أربعة وثمانين عاما عام 850هـ1447م ودفن بالقاهرة.

وقد أشاد كثير من العلماء بعقلية ابن المجدي وتواضعه.

ومن أهم إنجازات ابن المجدي العلمية أنه أضاف جديداً في الفلك لمعرفة كيفية التعرف على حال كوكب معين في وقت معين، ومعرفة الظل الواقع في السطح الموازي للأفق في أي وقت معين، ومعرفة الظل الواقع في السطح الموازي لمعدل النهار وسمته، وإخراج الجهات بارتفاع قطب المعدل للنهار، ومعرفة الجهات على أي

سطح من الأسطحة القائمة والمائلة والساعات الفلكية، بالإضافة إلى التعرف على ارتفاع الشمس إذا ألقت شعاعها في موضع لا يمكن الوصول إليه، واهتم بدراسة الكواكب في حالاتها المختلفة منها: زحل و القمر.

وقد وضع ابن المجدي مباحث مهمة في معرفة عمق الآبار، وسعة الأنهار، ومسافة ما بين الجبلين، وأيهما أقرب للسائر في الطريق.

وقد قاربت مؤلفات ابن المجدي من خمسين كتاباً ورسالة ومقالاً معظمها في الفلك والرياضيات، وهي في معظمها مخطوطات بدور الكتب العربية والأجنبية.

وفي الجملة فإنه على يد مصر وعلمائها قُعِّدت أكثر العلوم والفنون، وضُبطت الصناعات وحُذقت، ولو قُدِّر لها أن ترزق حكاماً صالحين لكانت الآن في مقدمة دول العالم، ألم يبعث اليابان بعثة رسمية أواخر القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي إلى مصر لينظر كيف تقدمت ليتبع خطواتها؟

لكن المصيبة كل المصيبة أن مصر بُليت بحكام سوء فعلوا بها كل قبيحة ونقيصة، وإنا لله وإنا إليه راجعون.

هذا غيض من فيض من سير أطباء مصر وفلكييها ورياضييها وحكمائها، والله الموفق.

مصر في أقوال العلماء والأدباء:

قد كثر الحديث عن فضل مصر من العلماء والأدباء، وبعضه حديث لطيف اصطفيت شيئاً منه وتركت البحر الزاخر، فمن ذلك:

قال ابن الكندي المصري :

"فضل الله مصر على سائر البلدان، كما فضل بعض الناس على بعض، والأيام والليالي بعضها على بعض، والفضل على ضربين: في دين أو دنيا، أو فيهما جميعاً، وقد فضل الله مصر وشهد لها في كتابه؛ بالكرم وعِظم المنزلة، وذكرها باسمها، وخصها دون غيرها، وكرر ذكرها، وأبان فضلها في آيات من القرآن العظيم، تنبئ عن مصر وأحوالها، وأحوال الأنبياء بها، والأمم الخالية، والملوك الماضية، والآيات البينات، يشهد لها بذلك القرآن، وكفى به شهيداً، ومع ذلك رُوي عن النبي صلى الله عليه وسلم في مصر وفي عَجَمها خاصة -أي القبط- وذكره لقرابته ورحمهم، ومباركته عليهم وعلى بلدهم، وحثه على برهم ما لم يُرو عنه في قوم من العجم غِيرهم ... مع ما خصها الله به من الخصب والفضل، وما أنزل فيها من البركات، وأخرج منها من الأنبياء والعلماء والحكماء والخواص والملوك والعجائب بما لم يخصص الله به بلداً غيرها، ولا أرضاً سواها.

فإن ثَرّب علينا مُثّرّب بذكر الحرمين، أو شَنّع مُشنع، فللحرمين فضلهما الذي لا يُدفع، وما خصهما الله به مما لا ينكر، من موضع بيته الحرام، وقبر نبيه عليه الصلاة والسلام، وليس ما فضلهما الله به بباخسٍ فضلَ مصر، ولا بناقص منزلتها، وإن منافعها في الحرمين لبينة، لأنها تُميرهما بطعامها وخصبها وكسوتها وسائر مرافقها، فلها بذلك فضل كبير، ومع ذلك فإنها تطعم أهل الدنيا ممن يرد إليها من الحاج طول مقامهم يأكلون ويتزودون من طعامها من أقصى جنوب الأرض وشمالها ممن كان من المسلمين في بلاد الهند والأندلس وما بينهما، لا ينكر هذا منكر، ولا يدفعه دافع، وكفى بذلك فضلاً وبركة في دين ودنيا.

وقال ابن ظهيرة المخزومي –رحمه الله تعالى :

"وأما القاهرة بالخصوص فبلد عظيم الشأن، وكرسي الإمام وبغية الإسلام، والدليل على شرفها وعظمها اتخاذ الملوك لها داراً، وبيت المال بها قراراً، وجيوش الإسلام لها استقراراً، ورحل إليها ونشأ بها واستوطنها العلماء الأعلام، والسادة من أولياء الله الكرام، وأهل الفضائل والصناعات البديعة، والتجار، وسائر أصناف الخلق على اختلاف أجناسهم وأنواعهم قاطنون بها لا يبرحونها، وأما المترددون للتجارة وغيرها فأكثر من أن يحصروا في عصر وزمان، وهي الآن أحق بقول أبي إسحاق الزجاج في بغداد: هي حاضرة الدنيا وما سواها بادية".

قال صلاح الدين الصفدي :

من شاهد الأرض وأقطارها　　　والناس أنواعاً وأجناسا

ولا رأى مصر ولا أهلها　　　فما رأى الدنيا ولا الناسا

وقال أيضاً:

رأيت في أرض مصر مذ حللت بها　　　عجائبا ما رآها الناس في جيل

تسود في عيني الدنيا فلم أرها　　　تبيض إلا إذا ما كنت في النيل

وقال زين الدين الوردي :

ديار مصر هي الدنيا وساكنها　　　هم الأنام فقابلها بتقبيل

يا من يباهي ببغداد ودجلتها　　　مصر مقدمة والشرح للنيل

وقال شاعر مصر الكبير جمال الدين بن نباتة:

دعاه لذكر الحمى مذهب　　　وشوق أقام فما يذهب

أمصرَ سقتك غوادي السرور　　　وجادك من أُفْقها صَيِّب

ذكرت زمانك حيث الوصال　　　وحيث الصبا طيب طيب

وقد كتب زين الدين الواعظ الشامي المقرب إلى صلاح الدين والأثير لديه -وهو من أهل دمشق ومن ساكني مصر- إلى صلاح الدين أثناء وجوده بدمشق يشوقه إلى مصر، ويدعوه إلى " نيلها ونعيمها، وسلسبيلها، ودار ملكها، ودارة فُلْكها، وبحرها وخليجها، ونَشْرها وأريجها -أي طيب رائحتها- ومقياسها وأنيس ناسها، وقصور معزها، ومنازل عزها، وجيزتها وجزيرتها، وخِيرتها وجِيرتها، وبِرْكتها وبَرَكتها، وتعلق القلوب بقليوبها، واستلاب النفوس بأسلوبها، وملتقى البحرين، ومرتقى الهرمين، وروضة جنانها، وجنة رضوانها، ومساجدها وجوامعها، ومشاهدها ومرابعها، ونواظر بساتينها ومناظر ميادينها، وساحات سواحلها وآيات فضائلها، ورحاب شوارعها، وطيب طويتها، ومجرى فلكها ومرساها، وعجائب بناها وغرائب مبناها، وكياسة أخلاقها ونفاسة أعلاقها، وشتاؤها في الفضل ربيع نضير، وغبارها عبير، وماؤها كوثري، وترابها عنبري!!"، ما أحسن هذا الوصف وما أجمله.

وقال شاعر العروبة والإسلام أحمد محرم :

بِراً بمصر، ومصر أعظم حرمةً ... من أن يضيع رجاؤها المنشودُ

إلا يكن مجدٌ أشم وسؤددٌ ... فحياة شعبٍ صالحٍ ووجودُ

شدّوا القلوب على الإخاء، فإنها ... مصرٌ، وإن بلاءها لشديدُ

أنرى الممالك كلّ يومٍ حولنا ... تسعى، ونحن على الرجاء قُعودُ؟

لأمرُ مشتَرَكٌ، ومصرُ لنا معاً ... في العالمين منازلٌ ولحودُ

والنيلُ إن حمل القذَى وإذا صفا ... فهو الحياةُ ووِردُها المورود

زعم العِدَى أنّا نَعُقُّ بلادنا ... زعمٌ لعمر الأمّتَيْنِ بعيدُ

من كان يحكم أن نعيش أذلة ... بين الشعوب، فحكمه مردود

لا نعرف اليأس المميت، ولا نرى ... أن الحياةَ سبيلُها مسدودُ

أيهانُ للأهرام مجدٌ باذخٌ ويُضام تأريخ لمصر مجيدُ؟

إن تَبْكِ مصر على مُؤثَّلِ مجدها فلسوف يرجع عالياً ويعود

وقال أيضاً:

نحن حِزبُ الله صُناً حَقَّه وحفظنا عهده في الناكِثين

نحن بايعناه مذ كنا على نصرة الحق، وكنا فاعلين

إن غضبنا أو رضينا فله لا نبالي تُرّهات المرجفين

نحمل الأقلام غُراً، ولنا صُحُفُ الأبرار بين الكاتبين

ما الأَلِبَّاءُ كضلاَّل النُّهى لا، ولا الأحرار كالمستعبدين

ما رضينا خُطّةَ الغاوي، ولا عابنا شأن الذّليلِ المستكين

يا لقومي جاهِدوا لا تَهنوا وسيأتي الله بالنصر المبين

أَنْجدوا مِصَر إذا ما فَزعتْ وأهابت بالكُماة الباسِلين

احفظوها، إن مِصراً إن تَضِعْ ضاع في الدنيا تراث المسلمين

وقد نظم شاعر النيل حافظ إبراهيم قصيدة في مدح مصر طويلة، أجتزئ منها التالي:

وَقف الخلق ينظرون جميعاً كيف أبني قواعد المجد وحدي

وبُناةُ الأهرام في سالف الدهـ ـر كَفَوْني الكلام عند التحدي

أنا تاج العلاء في مفرق الشـ ـرق ودُرَّاته فرائد عقدي

أي شيء في الغرب قد بَهَرَ النا سَ جمالاً ولم يكن منه عندي؟

ورجالي لو أنصفوهم لسادوا — من كهولٍ ملء العيون ومُرِدِ

لو أصابوا لهم مجالاً لأبدوا — مُعجزات الذكاء في كل قَصْدِ

أنا إن قَدَّر الإله مماتي — لا ترى الشرق يرفع الرأس بعدي

ما رماني رام وراح سليماً — مِن قَديمٍ عِناية الله جُنْدي

كم بَغَتْ دَوْلَةٌ علي وجارَتْ — ثمّ زالَتْ وتلك عُقبى التَّعَدِّي

قُل لِمَنْ أنكَرُوا مَفاخِرَ قَومي — مِثلَ ما أنكَرُوا مآثِرَ وُلْدي

هَلْ وَقَفْتُم بقمَّةِ الهَرَمِ الأكبـ — ـبر يوماً فرَيْتُمُ بعضَ جُهْدي؟

هَلْ رَأَيْتُمْ تلك النُّقوش اللواتي — أعْجزت طَوْق صنعةِ المتحدِّي؟

حالَ لَونُ النهار مِن قِدَم العهـ — ـد وما مس لونَها طولُ عهدِ

هل فهمتم أسرار ما كان عندي — من علوم مخبوءةٍ طَيَّ بَرْدي؟

ذاك فن التحنيط قد غَلَب الدهـ — ـر وأبْلى البِلى وأَعْجَزَ نِدِّي

وقديماً بنى الأساطيل قومي — ففرقن البحار يَحملن بَنْدي

أتراني وقد طَوَيْت حياتي — في مراسٍ لم أبلغ اليوم رشدي؟

أيُّ شعب أحق مني بعيشٍ — وارف الظل أخضر اللون رغد؟

أمنَ العدل أنهم يردون الـ — ـماء صفواً وأن يُكَدَّرَ وِرْدي؟

أمنَ الحق أنهم يطلقون الـ — ـأُسْدَ منهم وأنْ تُقَيَّدَ أُسْدي؟

فاستبينوا قصد السَّبيل وجِدُّوا — فالمعالي مَخطوبة للمُجِدِّ

وقد دعا الأستاذ محب الدين الخطيب –رحمه الله تعالى– ابن أخته الشيخ علي الطنطاوي –رحمه الله تعالى– إلى مصر فقال الشيخ علي:

"إنكم لا تدرون ماذا أثارت هذه الدعوة في نفسي من مشاعر، وفي ذهني من خواطر.

كانت مصر في خيالنا يومئذ دنيا مسحورة، فيها العجائب، وكل مرغوب فيه يأتينا منها: المجلات والصحف، الحركات الفكرية والوطنية تنبثق منها، الرجال الذين نقرأ لهم، والشعراء الذين نحفظ شعرهم منها، وكان تخيل ذهابي إليها أكبر من أن يمر وصفه من شق القلم، والتعبير عنه، مهما كان بليغاً، لا يبلغ حقيقته.

وكنت أسمع أن الأحرار من أرباب الأقلام، ومن عشاق الحرية يؤمون مصر: أستاذنا محمد كرد علي، ومن قبله شيخ مشايخنا السيد رشيد رضا، ومن بعده خالي وأستاذي محب الدين، يأتون من كل مكان من المغرب من الجزائر من تونس من ليبيا.

فلما طلب إليّ أن أسافر إلى مصر، تراءى لي هذا الحلم دانياً كأني ألمسه".

وقد مرّ ابن بطوطة –رحمه الله تعالى– بمصر في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي، وركب النيل من دمنهور متجهاً إلى القاهرة فقال يصف عِظَم ما رأى:

"ومن هذه المدينة ركبت النيل مصعداً إلى مصر، ما بين مدائن وقرى منتظمة، المتصل بعضها ببعض، ولا يفتقر راكب النيل إلى استصحاب الزاد، لأنه مهما أراد النزول بالشاطئ، نزل للوضوء والصلاة وشراء الزاد وغير ذلك، والأسواق متصلة من مدينة الإسكندرية إلى مصر، ومن مصر إلى مدينة أسوان من الصعيد.

ثم وصلت إلى مدينة مصر: هي أم البلاد، وقرارة فرعون ذي الأوتاد، ذات الأقاليم العريضة والبلاد الأريضة، المتناهية في كثرة العمارة المتناهية بالحسن والنضارة، ومجمع الوارد والصادر، ومحط رحل الضعيف والقادر،

وبها ما شئت من عالم وجاهل، وجاد وهازل، وحليم وسفيه، ووضيع ونبيه، وشريف ومشروف، ومنكر ومعروف، تموج موج البحر بسكانها، وتكاد تضيق بهم على سعة مكانها وإمكانها، شبابها يَجِدّ على طول العهد، وكوكب تعديلها لا يبرح عن منزل السعد، قهرت قاهرتها الأمم، وتمكنت ملوكها من نواصي العرب والعجم، ولها خصوصية النيل الذي أجلّ خطرها، وأغناها عن أن يستمد القَطْرَ قُطْرُها، وأرضها مسيرة شهر لمجدّ السير، كريمة التربة، مؤنسة لذوي الغربة، قال ابن جزيء: وفيها يقول الشاعر:

لَعمرك ما مصرٌ بمصرٍ وإنما هي الجنة الدنيا لمن يتبصَّر

فأولادها الولدان والحور عِينُها وروضتها الفردوس والنيل كوثر"

هذه هي بعض المقتطفات في مدح مصر من كلام الشعراء والأدباء، وهي غيض من فيض، وقطرة من بحر.

مصر في العصر الحديث :

قد كان لمصر في عصرنا الحديث فضائل جمة، وأعمال جليلة مهمة، ولأهلها أيادٍ بيضاء على المسلمين، وهذا بحر ضخم خضم لكني سآتي على بعض دررِه ولآلئه، فمن أدباء مصر الكبار :

مصطفى صادق الرافعي، وهو الأديب الذي سخر قلمه الرائع للدفاع عن ثوابت الإسلام والرد على خصومه، وعلى مثيري الشبهات الذين جعلوا القرآن غرضاً لهم، فألقمهم الحجر، ورد عليهم في كتابه الجليل "تحت راية القرآن" وغيره رداً مفحماً، ولقد كان وجوده بين أدباء عصره علامة فارقة؛ فإن معظم أدباء عصره كانوا بعيدين عن هذا المضمار، نائين بأنفسهم عن الدخول في هذه القضايا الإسلامية التي كان من يتبناها يُعرض نفسه لأشد أنواع الهجوم والبلاء الذي لا يطيقه كل أحد، هذا وقد كان ذلك الأديب الكبير أصم لكن لم يمنعه صممه من الوصول إلى أعلى الدرجات في الأدب.

ومنهم: الأستاذ سيد قطب الذي جمع بين الأدب الرفيع وتفسير القرآن على وجه لم يسبقه إليه غيره؛ إذ إني لا أعلم تفسيراً في الأرض نحا نحو تفسيره في ربط مدلولات الآيات القرآنية الكريمة بواقع الناس وأحوالهم وتصاريف زمانهم، فقد أفلح في ذلك وأجاد بل أقول إنه كان مُعاناً موفقاً، والله أعلم.

وقد كان من الأدباء القلائل جداً الذين خاضوا غمار الدعوة إلى الله، تعالى، وخُتم له بالشهادة إن شاء الله، وقد اتُّهم باتهامات عديدة صعبة خشنة من قِبَل خصومه وبعض أصحابه، وبعد دراسة أقواله والاطلاع على أحواله، وسؤال بعض أقرانه ومعاصريه فإني أدين الله تعالى بأنه بريء منها، وقد ركب متهموه مركباً صعباً عندما اتهموه بها، ولا أجد فصلاً بينه وبين مَن اتهمه بها أفضل من قول أبي العتاهية :

إلى دَيّان يوم الدين نمضي   وعند الله تجتمع الخصوم

نعم هو أديب وقع على الإسلام وأشرقت روحه وحَيِيَ قلبه به فتكلم في بعض أصول وفروع الشريعة بكلام رائع جليل أصاب في أكثره، وفي بعضه ما في كلام البشر من الخطأ، وما يصيبهم من الزيغ والزلل، لكن لا يصل إلى حد ما اتهمه به من اتهمه، فلم التشنيع والتهويل وكثرة العويل وعدم حمل كلام الرجل على أحسن محامله، ورد متشابهه إلى محكمه ومجمله إلى مبينه ؟

ومنهم الأستاذ الكبير الأديب العالم أبو فِهرْ محمود محمد شاكر الذي كان له مواقف جليلة صدع فيها بالحق، وفَنّد فيها الباطل بقوة، وله كتب عظيمة صارت هادية للأجيال وموجهة لها ومرشدة، ولو لاين خصومه وتفاهم معهم لاجتمعت حوله القلوب والتف عليه الناس، لكنه –رحمه الله تعالى– كان يشتد عليهم اشتداداً لا يفرق فيه غالباً بين داعية للإسلام وعدو له، وبين محب للاسلام وشانيء ومبغض له، وهو بعد هذا كله قمة سامقة لا يستطيعها الرويبضات التافهون، وله الكتاب المشهور الذي لا يستطاع الإتيان بمثله ولا بنصفه، على وجازته وصغر حجمه، وهو "رسالة في الطريق إلى ثقافتنا" أبدع فيه أيما إبداع، وله أعمال أخرى جليلة، وآثار مضيئة.

وأما شعراء مصر الذين كان لهم أثر عظيم في تجديد الشعر العربي بعد مدة انحطاط طويلة فعدد كبير منهم الضابط المشارك في الثورة العرابية محمود سامي البارودي –وهو أول الكبار– وأحمد شوقي الذي قيل فيه: لم يأت بعد أحمد المتنبي مثل أحمد شوقي، ومنهم حافظ إبراهيم شاعر النيل، وأحمد محرم شاعر العروبة والإسلام، ومحمود غنيم.

ومن دعاة مصر الكبار :

الأستاذ الإمام محمد عبده الذي كان أحد المؤثرين الكبار في تاريخ مصر بل في تاريخ الإسلام الحديث، والرجل عليه بعض المؤاخذات –غفر الله له– لكن أثره وعمله ما زال يتردد في جنبات مصر إلى يوم الناس هذا، وتوفي –رحمه الله تعالى– سنة 1322/1905.

ومنهم الأستاذ محمد رشيد رضا الشامي ثم المصري، منشئ مجلة المنار في مصر، وهي المجلة التي ظلت ملاذاً لأهل الإسلام أكثر من ثلاثين سنة، وللشيخ رشيد آثار في التجديد، والاجتهاد في الدعوة إليه مشهودة معلومة، وظل شوكة في حلق أعداء الإسلام وفي حلق أنصاره من الجامدين المعارضين حتى أتاه اليقين سنة 1935/1353، رحمه الله تعالى.

ومنهم الأستاذ الإمام الشهيد –بإذن الله تعالى– حسن البنا، الذي لم يأت مثله —عندي– في مجموع صفاته وأحواله منذ شيخ الإسلام ابن تيمية –رحمه الله تعالى– وذلك أنه أتى والإسلام قد درست معالمه، وانطمست مزاياه ومحاسنه، وأكثر أهله عنه مدبرون، وفي جدواه متشككون، ومن اطّلع على أحوال عصره علم ما قلته، وعرف صدق ما ادعيته، فأعاد إلى الإسلام ما امتاز به من الشمول، بعد طول أُفول، وأظهر ما فيه من جلال وجمال بعدما أصابه على يد أهله بسبب سوء الأفعال والأقوال.

والرجل ليس ككل الرجال، فحسبكم دليلاً على ذلك أنه عاش أربعاً وأربعين سنة تقريباً جاهد فيها إخوان القردة في فلسطين والصليبيين الإنجليز في مصر، وترك من الأعمال والآثار ما يعجز عنه جماعة كبيرة من الرجال الأبطال، فهذا يدل –والله تعالى أعلم– أن لله به عناية، وأما ما اتهمه به خصومه فهو شِنشنة نعرفها من أَخْزم، واتهامات لم يقيموا عليها بينات جليّات، ولا دلائل واضحات فذهبت أدراج الرياح وبقي للرجل سيرته الناصعة البيضاء، وهو على كل حال بشر ليس بمعصوم، وله أخطاء وزلات كما لسائر البشر – حاشا الأنبياء والمرسلين عليهم صلوات الله وسلامه أجمعين – لكن الظلم كل الظلم هو تضخيم الأخطاء القليلات غير المقصودات ونسيان المحاسن الكثيرات، والمزايا الواضحات، والأعمال العظيمات.

ومنهم الأستاذ الداعية المنتسب إلى الجمعية الشرعية محمود عبدالوهاب فايد الذي وقف في وجه الطاغية العبد الخاسر، وصدع بالحق في زمن قَلّ فيه الصادعون، ونكص أكثر الناس من الخواص والعلماء والمشايخ وطلبة العلم على أعقابهم، يوم كان أكثر أبطال مصر في السجون أو المنافي، وكان له مواقف في مصر هي

خالدة في ذاكرة التاريخ، وأرجو أن ينال بها أعظم المكافأة في الآخرة، إن شاء الله تعالى، وقد كتبت في هذه المجلة في حلقة من حلقات "عظماء منسيون في التاريخ الحديث" تفاصيل سيرته فلا أعود لها هاهنا.

وقريب من هذا الداعية الإمام ومن كان في الصدع بالحق مشهوراً أيضاً الأستاذ محمد أبو زهرة الذي كان له مواقف جليلة صدع فيها الطاغية العبد الخاسر بالحق البين الواضح فلم يملك له إلا أن جرّده من مناصبه وعزله عن وظائفه، وللآخرة خير له من الأولى، إن شاء الله تعالى.

ومنهم الشيخ عبد الحميد كشك الخطيب المِصْقَع الذي لم يأت مثله –عندي– منذ قرون، وكان له أكبر الأثر في إذكاء الصحوة الإسلامية، وله طريقة في الخطابة لا تبارى ولا تجارى، وهو فصيح بليغ الى الحد الأعلى من الفصاحة والبلاغة، ومن استمع لخطبه أدرك ما أقول، أما جمعه بين هذا كله وبين الدعابة واللطف والاقتراب من الجمهور فهو شيء جديد في الخطابة أجزم –والله أعلم– أنه لم يقع من قبل، وحسبه شرفاً أنه توفي وهو ساجد، فلله ما أحسن ميتته، وما أشرف خاتمته.

وإن ينس التاريخ أحداً من الناس فانه لن ينسى أبداً إن – شاء الله تعالى — جملة من الدعاة العاملين أصحاب المؤلفات النافعة والمواقف الرائعة منهم المشايخ والأساتذة محمد الغزالي ، والبهي الخولي، ومحمود خطاب السبكي منشيء الجمعية الشرعية، ومحمد الفقي من جماعة أنصار السنة، والمحدث أحمد محمد شاكر، والتونسي المصري شيخ الأزهر محمد الخضر حسين، وشيخا الأزهر الصادعان الرئيس السادات بالحق: عبد الحليم محمود وجاد الحق، وعمر التلمساني، ومصطفى مشهور، وغيرهم كثير، رحمهم الله تعالى.

وفي مصرَ اليوم ثلة من الدعاة كان لها أثر عظيم في تصحيح مسيرة شعب مصر وكثير من الشعوب العربية والإسلامية، ولهم أيادٍ بيضاء لا تنكر في مجالات كثيرة، ولولا أني اشترطت على نفسي ألا أمدح إلا من انتقل إلى الدار الآخرة –حميداً سعيداً إن شاء الله– لذكرت جملة كبيرة منهم.

وكم لمصرَ من الأيادي البيضاء على الدول العربية والإسلامية، فقد علّم أساتذها ومدرسوها كثيراً جداً من العرب والمسلمين، وكان من المصريين وما زال لهم دعاة مبثوثون في قارات الدنيا الست، لا تخطئهم العين، ولا يغيبون عن المواقع المهمة.

ولا يُنسى فضل مصر في معركة العاشر من رمضان سنة 6/1393 أكتوبر 1973 وإيقاف زحف إخوان القردة، وقد تحدثت عنها في مكان آخر، وهي أجلّ معركة في العصر الحديث وقائع ونتائج، والله أعلم.

وعقب تلك المعركة ظهرت الصحوة الإسلامية الجليلة الرائعة، التي أتى بها الله بنيان الكافرين والعلمانيين والمنافقين من قواعده، وهدم جُلّ مخططاتهم بهذا النورِ الذي بزغ شيئاً فشيئاً، واتسع نطاقه بعد ذلك ليعم بلاد مصر، بل معظم بلاد العالم، وللصحوة حديث جليل وتفصيل رائع لا يصلح له هذا السياق العَجِل، لكني ذكرت ذلك لأبين ريادة مصر الإسلامية في هذا الأمر، وفضلها على سائر الأقطار.

ولمصر قرّاء للقران هم أساتذة الدنيا في الإقراء وجودة التلاوة وحسنها وعلى رأسهم الثلاثة الذين ليس لبلد في الأرض مثلهم: الشيخ محمود خليل الحصري، وعبدالباسط عبدالصمد، ومحمد صديق المنشاوي، وقد يضاف إليهم الأستاذ محمد رفعت، وإن لم يبلغ –عندي– إتقانَ أولئك الثلاثة، لكن لصوته جلال وجمال قَلّ مثيله.

وفي مصرَ اليوم ثلة من علماء الشريعة لهم أيادٍ بيضاء على شعب مصر والشعوب العربية والإسلامية.

وفي مصر عدد ضخم من علماء الكيمياء والفيزياء والرياضيات والطب وسائر جوانب العلوم الطبيعية والتطبيقية والتقنية، وقد أغنى كثير منهم الحضارة الغربية وجددوا لها نسيجها القديم، وكان لهم أثر لا ينكر في المشاركة في المسيرة الحضارية لعدد من الدول الغربية والإسلامية والعربية، وقد اغتال إخوان القردة مجموعة من أبرز هؤلاء، وقد أوردت موسوعة "ويكيبيديا" سيرة موجزة لهؤلاء وفي وكيفية مقتلهم فقالت:

"علماء مصر الذين اغتالهم الموساد الإسرائيلي خارج مصر:

يحيى المشد وهو عالم ذرة مصري وأستاذ جامعي، درّسَ في العراق في الجامعة التكنولوجية قسم الهندسة الكهربائية فشهد له طلابه وكل من عرفه بالأخلاق والذكاء والعلمية، اغتاله الموساد في يوم الجمعة 13 يونيه عام 1980 -أي سنة 1400هـ- ، وفى حجرته رقم 941 بفندق الميريديان بباريس عُثر على الدكتور يحيي المشد جثة هامدة مهشمة الرأس ودماؤه تغطي سجادة الحجرة.

علي مصطفى مشرفة باشا (11 يوليو 1898- 15 يناير 1950 م) عالم رياضيات مصري ،ولد في دمياط، تخرج في مدرسة المعلمين العليا 1917، وحصل على دكتوراه فلسفة العلوم PHD من جامعة لندن 1923، ثم كان أول مصري يحصل على درجة دكتوراه العلوم DSC من إنجلترا من جامعة لندن 1924، عُين أستاذاً للرياضيات في مدرسة المعلمين العليا ثم للرياضة التطبيقية في كلية العلوم 1926.

مُنح لقب أستاذ من جامعة القاهرة وهو دون الثلاثين من عمره.

كان يتابع أبحاثه العالم أينشتاين صاحب نظرية النسبية، ووصفه بأنه واحد من أعظم علماء الفيزياء.

انتخب في عام 1936 عميداً لكلية العلوم، فأصبح بذلك أول عميد مصري لها.

حصل على لقب الباشوية من الملك فاروق.

تتلمذ على يده مجموعة من أشهر علماء مصر، ومن بينهم سميرة موسى.

توفي في 15 يناير 1950م، اثر أزمة قلبية، ويشاع أنه توفي مسموماً وقيل إن أحد مندوبي الملك فاروق كان خلف وفاته، كما قيل أيضا إنها أحد عمليات جهاز الموساد الإسرائيلي.

سميرة موسى (3 مارس 1917- 15 أغسطس 1952م) ولدت في قرية سنبو الكبرى، مركز زفتى بمحافظة الغربية.

وهي أول عالمة ذرة مصرية ولقبت باسم ميس كوري الشرق، وهي أول معيدة في كلية العلوم بجامعة فؤاد الأول، جامعة القاهرة حالياً.

استجابت الدكتورة سميرة إلى دعوة للسفر إلى أمريكا في عام 1952، أتيحت لها فرصة إجراء بحوث في معامل جامعة سان لويس بولاية ميسوري الأمريكية، تلقت عروضاً لكي تبقى في أمريكا لكنها رفضت وقبل عودتها بأيام استجابت لدعوة لزيارة معامل نووية في ضواحي كاليفورنيا في 15 أغسطس، وفي طريق كاليفورنيا الوعر المرتفع ظهرت سيارة نقل فجأة؛ لتصطدم بسيارتها بقوة وتلقي بها في واد عميق، قفز سائق السيارة -زميلها الهندى في الجامعة الذي يقوم بالتحضير للدكتوراه- والذي اختفى إلى الأبد".

هذا بعض ما يمكن إيراده في هذه العجالة من معالم مصرَ فى العصر الحديث، وهو قُلٌّ من كُثْر، وغيض من فيض، وقطرة من بحر.

وإني لأرجو بهذه الحلقات العشر أن أكون قد وفيت لأهل مصر جزءاً من حقهم، وبينت شيئاً من فضلهم، وأتيت على قطرة من بحرهم، وأظهرت بعض مفاخرهم، ووضحت قليلاً من مآثرهم، وإلى الله -تعالى- أشكو التقصير.

وفي الحلقة الأخيرة القادمة، سأورد -إن شاء الله تعالى- ماذا يريد المسلمون من المصريين، وماذا يطلبون منهم، فإن للمجد الذي أوردت بعضه ضريبة، وللشرف الباذخ ثمناً، وللعزة القَعْساء عملاً جليلاً، والله المستعان.

الخاتمة :

قد قدمت في الحلقات العشر الماضيات شيئاً من فضائل مصر ومزايا أهلها، وبينت عِظَم العطاء الذي شارك به المصريون في بناء صرح الشريعة الإسلامية، والثقافة الإسلامية، والحضارة الإسلامية، وهو أمر مشهور ذائع لا يحتاج إلى بيانٍ من مثلي لكنه من باب

(وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين) ، وهو -أيضاً- أداء لحقهم، وبيان لفضلهم الذي قد يغمطهم عليه حاقدٌ أو يدفعهم عنه جاحد.

وبقي لي أن أنبه شعب مصر إلى بعض الأمور المهمة التي يريدها المسلمون منهم:

أولاً: مصر للمسلمين :

قد شاع في مصر بعد تولي السادات مقاليد الحكم واستقرار الأمر له شعار مصر للمصريين، ونادى بعض المصريين بوجوب الانكفاء على مصر وعدم الالتفات إلى غيرها، خاصة عندما جُمدت عضوية مصر في الجامعة العربية بسبب صلح السادات المشؤوم مع إخوان القردة، واستمر هذا الشعار مسيطراً في زمن المخلوع اللامبارك، فاجترأ إخوان القردة على لبنان سنة 1982/1402 ولم تحرك مصر ساكناً، ثم حصلت مآس بعدها عديدة في بلاد العرب والإسلام كانت مصر بعيدة عنها تقريباً، ومصر اليوم بعد الثورة لابد أن تعود لكل المسلمين، فتحمل همومهم، وتحل مشكلاتهم، وتدرأ في نحور أعدائهم، وتدفع شرورهم، هذا هو قدر مصر الذي قدره الله -تعالى- لها منذ أن حملت راية القيادة في العالم الإسلامي بعد سقوط بغداد، وقد أوقفت مصر المد التتري الهمجي ودحرته في عين جالوت في أرض فلسطين بقيادة المماليك وأميرهم قطز في الخامس والعشرين من رمضان سنة 658، ولم تذق التتار الهزيمة على يد المسلمين لمدة نصف قرن تقريباً من المعارك قبلها.

وقد ردّت مصر الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع لما اجترأ على غزو الديار المصرية 647، وأذاقته ألم الأسر والهوان، وقتلت من جيشه عشرات الآلاف وأسرت آلافاً مؤلفة، وباءت الحملة بالخزي والذل، بفضل الله -تعالى- ومنّه.

وقد طردت مصر الصليبيين من الساحل الشامي وطهرته تماماً بقيادة المماليك وأميرهم الأشرف خليل بن قلاوون سنة 690 بعد أن طرد الصليبيين من عكا.

وقد أنقذت مصر المسلمين بانتصارها على إخوان القردة في رمضان سنة 1393/ أكتوبر 1973.

تلك كانت أعمال مصر الإسلامية على الصعيد العسكري، أما غير ذلك فقد تولت مصر مقاليد القيادة الدينية والثقافية والحضارية في البلاد العربية المشرقية قرابة 800 سنة، على ما بينته في أكثر الحلقات السابقة، فمقولة مصر للمصريين إذن لا تصح تاريخاً ولا حالياً، ولا يمكن أن تكون مصر إلا للمسلمين كلهم.

ثانياً: الانفتاح الثقافي:

قد عاش أكثر المصريين حيناً من الدهر لا يكادون يرون أحداً عنده علم نافع أو ثقافة جيدة سوى المصريين، وأكثر أولئك ما زالوا يفعلون الشيء نفسه، وهذا فيه غلوٌّ في التقدير، وقصور في الاطلاع على ثقافات الشعوب وأحوالها، وقد ساعدهم على ذلك وسائل إعلامهم التي كانت مسيطرة على الساحة العربية إلى زمن قريب، ولابد من تغيير هذه النظرة إلى الشعوب الأخرى من غير المصريين، ففيها علماء وعظماء ومثقفون، وقد بلغ أولئك أعلى الدرجات في تخصصاتهم، فينبغي إذن أن يكون هناك تعاون وثيق قوي بين عظماء المصريين ونظرائهم من البلاد العربية والإسلامية، وأن يكون هناك تكامل جيد وتنسيق

حسن؛ إذ المرحلة المقبلة في مصر وبلاد العروبة والإسلام حرجة وصعبة، والمطلوب هو تعاون كل القوى لإنجاح المقاصد العليا للشرع المطهر.

ثالثاً: تعاون القوى الإسلامية والوطنية:

في مصرَ قوى إسلامية جليلة ضخمة، على رأسها الإخوان والسلفيون، وفيها قوى وطنية ربما لم تُوفق للاعتصام بالإسلام منهجاً لكنها تريد الخير لمصر والمصريين، وهي نزيهة لا تقبل العِوج ولا الفساد، فينبغي أن يجتمع كل أولئك للعمل على إخراج مصر من النفق المظلم الذي وضعها فيه الطغاة والظلمة والمستبدون، والفاسدون وخربو الذمم، منذ زمن طويل –أقدره بثمانية قرون تقريباً– إلى يوم الناس هذا، ولم تنعم مصر أثناءه بحكم رشيد إلا في مدد قصيرة متقطعة، ومصر تملك من الثروات البشرية وغيرها قدراً هائلاً، وتملك الموقع المتفرد جغرافياً، فهي حقيقة بالريادة والسيادة، وتسنم ذُرى المجد الذي مُنعته وتسنمته دول لا تَعْشُر مصر، لكن هذا لن يكون –بعد توفيق الله تعالى– إلا بالاجتماع والتعاضد والتآزر والتناصر.

رابعاً: تحكيم الشريعة:

إن قاصمة الظهر التي حلت بأكثر البلاد العربية والإسلامية هي تنحية كتاب الله –تعالى– وسنة رسوله الله صلى الله عليه وسلم عن الحكم والتشريع، وكان هذا على يد الاستخراب العالمي وأذنابه من بعده، وقد نال مصرَ نصيب وافر من هذه الجناية بل الجريمة الفظيعة، وتعاون على إبعاد مصر عن كتاب ربها –سبحانه وتعالى– وسنة نبيها صلى الله عليه وسلم حكامها المستغربون، والإنجليز الظالمون الماكرون، وبثوا في الأرض من أنواع المفاسد والشرور شيئاً عظيماً، ونهبوا البلاد، وسرقوا العباد، وفعلوا كل نقيصة واجترأوا على كل سوء وقبيحة، وإنا لله وإنا إليه راجعون، ولن ينقذ البلاد من الهوة التي سقطت فيها إلا تحكيم شرع الله – تعالى– وتعبيد الناس لربهم، سبحانه، ونشر نور القرآن الكريم والسنة المطهرة في ربوع مصر، هذا أمرٌ لابد منه، ولا نقاش فيه، لكن مصر ابتدأ تغريبها منذ زمن محمد علي أي منذ أكثر من مائتي سنة، ولا يمكن إرجاعها إلى الجادة بعمل أشهر، فلابد من التدرج بالناس، وحسن عرض الأحكام الشرعية، وبيان ما ينبغي عليهم صنعه في هذا الباب بالحكمة والموعظة الحسنة ومراعاة الأحوال، ومعرفة مكائد الأعداء، ومكرهم في

الليل والنهار بمصر وأهلها، وإرادة الوقيعة بين الشعب بعضه بعضاً، وإجهاض مكاسب الثورة المصرية، وتفريغها من مضمونها.

وها هنا يثور سؤال أثير من قبل مراراً في وجوه المطالبين بتحكيم الشريعة ألا وهو: هل يجوز التدرج في العمل بالأحكام؟

وأقول –وبالله التوفيق– إنه لابد من التدرج مع قوم هذا شأنهم الذي ذكرته آنفاً، لكن للتدرج شروط منها:

أ. إحسان النية بوجوب العمل بكل الشريعة في نهاية المطاف، والعزم على ذلك.

ب. العمل بما يمكن العمل به من أحكام الشريعة والابتداء به فوراً، وهذا الممكن يقدره أهل الحل والعقد من علماء الشريعة والدعاة والعاملين ولا يُترك لألاعيب السياسيين ومماطلاتهم، وحبذا لو أنشئت لجنة خاصة لهذا الغرض ذات صلاحيات تمكنها من العمل بحرية ودأب للوصول بمصر وأهلها إلى بر الأمان؛ أمان الشريعة الذي لا أمان في غيره.

جـ. النص بوضوح لا لبس فيه في الدستور على أن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع، إذ لا يجوز الاستقاء من مصدر غير الشريعة فيما فيه نص شرعي في ديننا.

د. ألا يطول هذا التدرج بل توضع مدة معقولة مقبولة يقدرها علماء الشريعة والدعاة الفضلاء، خاصة أن الشعب مهيئ لهذا الآن عقب الثورة.

خامساً: الرفق بالشعب:

إن الشعب المصري اليوم بحاجة إلى يد حانية تمسح آلامه، وتزيح همومه، وتفرّج كروبه، وتنفس عنه عظيم ما يجد، وتعيد تربيته تربية إسلامية تؤهله لاستلام مفاتيح الريادة والسيادة، وليس أحد أحق بهذا من الدعاة الربانيين، والعاملين الصالحين، بالحكمة والموعظة الحسنة، والحوار اللين الرفيق، وتلمس مشكلات الشعب والعمل على حلها، والحرية التي بمصر الآن هي فرصة عظيمة للدعاة والعاملين، عليهم أن يستفيدوا منها في الانطلاقة الجادة لإصلاح الشعب، ودعوته إلى الله تعالى.

ولابد أن يُعلم أن الشعب المصري تعرض لتغريب طويل دام عقوداً وأنه لابد من التدرج في إرجاعه إلى الجادة، فإن كثيراً من الناس قد خفيت عليه معالم الحق، وانطمست في نفسه شعائر الإسلام وشرائعه بسبب التجهيل الطويل الذي سبّبه القائمون على المناهج التربوية ووسائل الإعلام المتعددة ممن لم يتقوا الله تعالى في هذا الشعب العظيم، ولعلي أختم بدعوة الحكومة المصرية المنتخبة المرتقبة أن تعيد النظر في كل وسائل الإعلام ومناهج التعليم، وطرائق إدارة الوزارات الخدمية، وأن تكون متأهبة لحمل المسؤولية الجسيمة العظيمة التي تنتظرها، وأن تحاول جاهدة أن تعيد للناس الثقة في أنفسهم وبلدهم وأصحاب المناصب والأعمال فيها، وهذا ليس بالأمر المستحيل، بإذن الله تعالى، فإن حكومة حزب العدالة والتنمية التركية أمسكت بزمام البلاد وقد تردت إلى هوة سحيقة فما زالت بها جداً واجتهاداً وعملاً متواصلاً حتى أصبحت ديار الترك اليوم تضاهي أحسن البلاد في العالم، ومصر وشعبها –لو فُتح الباب أمامهم– أكثر قدرة من الترك، وأحسن دأباً واجتهاداً، ولا ينقصهم شيء إلا الاعتصام بحبل الله تعالى والتوكل عليه والرجوع إليه، وما أحسن قوله سبحانه:)ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض).

وقوله تعالى: وقوله تعالى (وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا (2) وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لَا يَحْتَسِبُ وَمَن يَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ فَهُوَ حَسْبُهُ)

وقوله تعالى: (وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا)

والله أكبر والعزة للإسلام والمسلمين.